قطط لا تموء

قطط لا تموء

رواية

إبراهيم عبدالجليل الإمام

قطط لا تمـــوء

اسم الكاتب: إبراهيم عبدالجليل الإمام
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد دربالة
الإخراج الفني: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – نوفمبر ٢٠١٩ م
رقم الإيداع: 2019 / 22589

١١٤ ع جنوب الأحياء – السادس من أكتوبر
Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
ت / ٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر

إهداء

إلى وطنٍ آليتُ ألا أبيعه .

وطن ضائع

سار في الأرض الخلاء متجولاً كعادته كل صباح .. تشمّم ترابها .. حفر بقوائمه الأمامية هنا وهناك، باحثا عن شيء مجهول أو أثر مفقود .. انتهى من جولته في الساحة الشاسعة الممتدة، سار بتكاسل قطٍ عجوز .. اتخذ من ظل جدار منهار مرقداً .. راقب بعينين نصف مفتوحتين الخلاء الممتد أمامه .. أفلحت أسراب الذباب المحلقة فوقه في تعكير صفوه.

حاول الذود عن نفسه فطاردها بذيله .. فشل في اختلاس ساعة نوم في مكانه الظليل .. هاجت ذكرياته .. خانته عبرة .

❖❖❖

أثارته حركة بالجوار.. التفت ليتبينها.. وسع من فتحة عينيه الواهنتين.. عاود محاولة اقتناص غفوة من جديد.. لم يكن مثيراً لانتباهه وجود قط آخر في المكان.. رغم صغر سنه وفتوته البادية.

بعد دقائق شعر به يقترب من مرقده البارد، امتعض وتأفف لضياع آخر أمل لنومة مريحة..

وصل القط الفتيّ.. استغرب لوجود قط مثله في هذا الخلاء.. خصوصا وهو بهذه الفروة النظيفة، وقف على مسافة منه .. كانت كافية ليتأمله ملياً، تحسر في نفسه على شبابه..

استأذنه بأدب جم مشاركته ظل الجدار .. لم يحرك الكهل ساكناً.

اعتبر الزائر سكوته رضى منه على طلبه، اقترب أكثر.. استلقى بمحاذاته.. وضع رأسه بين قائمتيه..

بدا واضحاً رغبته في تبادل الحديث معه بدل البحث عن نومة هانئة إلى جواره.. امتعض القط العجوز من هذا الإحساس ..

لم يطل الصمت بين القطين المستلقيين تحت ظل الجدار .. كانت تفصل بينهما مسافة قليلة بحساب المكان .. أما بحساب الزمان فكانت أكثر من ذلك بكثير .

❖❖❖

بحث القط الفتيّ عن طريقة يفتتح بها حديثه مع الكهل ..

أعفاه الكهل من هذه المهمة العسيرة .. بادره متسائلاً:

- ما الذي يجعل قطاً جميلاً مدللاً مثلك يرتاد مكاناً موحشاً بعيداً كهذا؟

فرح الفتى بالسؤال الذي منحه مدخلاً للحوار مع الكهل المتناوم:

- هذا المكان هو موطن آبائي .. وجئت لألقي نظرة على المكان الذي طالما حدثتني عنه أمي بحرقة.

استثار جوابه الكهل.. طرد آخر بقايا النعاس عنه.. عدل من وضعه، سأله مستغرباً:

-أمك !!

كان السؤال كافيا للقط الفتيّ لمد جسور الحوار بينه وبين الكهل:

- حدثتني كثيرا عن موطنها الأصلي .. حدثتني عن أبي وكيف تزوجا.

- تزوجا هنا؟

- هكذا قالت.. حدثتني عن هذا المكان كثيراً.. حتى اشتاقت نفسي لرؤيته.. فها أنا هنا من أجل أن أشبع عينيّ ونفسي من موطن آبائي الأول.

❖❖❖

تنهد القط الكهل .. يبدو أن ما قاله الفتيّ حرك ما كمن في نفسه من ذكريات .. سأله الفتيّ بلهفة:

- وأنت ما الذي جاء بك إلى هذا الخلاء؟.

توقع الكهل السؤال.. غيّر من وضعيته من جديد قبل أن يجيبه:

- أنا من أهل هذا الوطن .... قبل أن يصبح خلاءً.

اقترب القط الفتيّ من مكان الكهل .. استأنف الأخير كلامه:

- ولدتُ هنا.. ترعرعت في خيراته.. وشهدت نهايته أيضا على أيدينا.. وها أنا آتي بين الفينة والأخرى لأبكي وطنا ضيعناه بحمق.

زفر زفرةً حارة.. سالت دمعة على خده.. صمت القط الفتيّ بعض الوقت، سأله بعدها:

- حكت لي أمي عن هذا الوطن.. كيف كان مرتعاً خصباً وجميلاً وواسعاً.. هذا كل ما جادت به.. كانت تبكي أيضا كلما تحدثت وتذكرت كيف صرنا وما آل إليه مصيرنا.

- ما اسم والدتك؟

فوجئ الكهل بعد سماع الاسم.. بل واستوى جالساً.. كان آخر اسم توقع سماعه.

❖❖❖

انسحب ظل الجدار قليلاً.. اقترب الكهل من الفتيّ.. تمعن في ملامحه:

- كيف غاب عني ذلك؟ .. إنك تحمل كل ملامحها.. هل لا تزال حية؟ .. هل ورّثتك كذلك عنادها وإصرارها وشراستها؟.

- يبدو أنك تعرفها جيداً.

تنهد من جديد.. عاد إلى مكانه الظليل.. استلقى.. أغمض عينيه:

- تلك أيام خلت.
- هل أطمع أن تروي لي نتفاً من ذكريات تلك الأيام؟.
- ألم تشف أمك غليلك؟
- ترفض البوح بما في جعبتها.. تكتفي بالتنهد والتحسر.. أحياناً تبكي كلما طلبت منها أن تحدثني عن هذا التاريخ.. لم أظفر منها إلا بالقليل.. لا أعلم لماذا ترفض الحديث عن وطنها؟ .. كل ما ظفرتُ به منها هو أنه كان وطنا جميلا خصباً.
- لا أستغرب منها ذلك.. أنا نفسي لا أستطيع الحديث عن الماضي.. أخجل كثيراً من ذكره.. فنحن سبب كل ذلك. كل ما أستطيع فعله هو الحضور إلى هنا.. ذات يوم كان وطنا يجمعنا.. صار الآن مجرد خلاء.. أتجرع أحزاني وأبكي على أطلاله.
- لماذا كل هذا الخوف من الحديث عن ماضيكم؟
- ليس خوفا يا ولدي.. بل خجلاً.
- حديثكم لنا عنه قد يجنبنا الوقوع فيما وقعتم فيه..

صمت القط الكهل.. يبدو أنه لم يستسغ ما قاله الفتيّ.

- ألا يمكن إعادة الوطن؟.
- لن يعود كما كان.. لن يعود كما كان.

ميلاد

لا أعرف من أين أبدأ.. لا أحد يعلم كيف كانت البداية .. عرفنا ذلك لاحقا.. بعد أن آل كل شيء لما تراه الآن.

واصل الكهل اجترار ذكرياته:

- قبل سنوات عديدة مضت.. فتحتُ عينيّ هنا.. في هذا الوطن.. من أبوين عاشا هنا.. ماتا هنا.. دفنا هنا.. بكيتُ عليهما ذات يوم.

وقف من مكانه سار خطوات.. تبعه الفتيّ.. وقف بعد مسافة.. نظر كمن يبحث عن شيء ما.. التفت إلى الفتيّ الواقف خلفه مشيراً:

- هناك في ذاك المكان دُفنا.. ذاك شاهد قبريهما.. الآن أحسدهما لأنهما دفنا في هذا الوطن.. بت أخشى أن أموت بعيدا عن هذا المكان.

سار عائدا إلى ظل الجدار .. تبعه الفتيّ.

❖❖❖

- كان المكان واسعا شاسعاً.. يتسع للجميع.. لا حدود له ولا نهاية.. يمتد على مد البصر.. ولدتُ بعد زواج والديّ إثر قصة حب لم تطل كثيراً.. كللت بارتباطهما.. وجئتُ سريعا إلى هذا الوطن لأنهل من خيراته.

- خيراته!

- نعم خيراته.. كان فيما يحكي الأولون فضاءً فسيحًا.. خالياً قفراً من كل شيء.. اتخذ منه الأسلاف مكاناً لخلواتهم.. فهو بعيد عن العمران..

طرد ذبابة أزعجته .. استأنف حديثه:

- ذات مساء.. كان في الخلاء زوج من القطط.. يستكشفان المكان.. كانت زيارتهما الأولى للمكان.. فجأة قطع خلوتهما وسكون المكان صوتٌ أربكهما.. يزداد ضجيجه رويدا رويدا.. بحثا عن مخبأ.. اقترب الصوت المنكر.. لمحاه من مخبئهما.. كان وحشا برتقالي اللون.. يتصاعد من مؤخرته دخان كثيف.. توقف في وسط الخلاء.. زمجر طويلاً.. نزل من جوفه إنسي.. اختفت ملامح وجهه خلف منديل أبيض.. تمعن في المكان طويلاً.. عاد ليصعد إلى الوحش البرتقالي.. زمجر من جديد في غضب.. تصاعدت سحب دخان خانقة من مؤخرته.. سار قليلا في الخلاء اختار موقعا ارتضاه.. ألقى ما في جوفه.. غادر بعد أن أعاد زمجرته من جديد.. اختفى الضجيج.. عاد السكون ليحل في المكان من جديد .. خرج العاشقان من مخبئهما بعد أن اطمئنا إلى مغادرة البرتقالي الغاضب .. سارا بحذر نحو ما خلفه الوحش وراءه ..تفحصاه .. كانت مفاجأة صاعقة لهما لم يتوقعاها أبدا .

❖ ❖ ❖

-ما الذي اكتشفاه ؟

لم يطل انتظار القط الفتيّ كثيرا للحصول على إجابة سؤاله .

- كانت ثروة .
- ثروة!
- نعم .. كانت بقايا ذلك الوحش المزمجر ثروة بالنسبة لأمثالنا.
- ما الذي تركه خلفه؟
- إنها ما يسمونه قمامة .
- قمامة!
- نعم .. كانت لأمثالنا ثروة وجدنا فيها كل ما لذ وطاب من الأكل.. صحيح أن الأمر لا يخلو من روائح كريهة.. لكن أمة القطط لا تأبه لمثل هذا الأمر.. ربما أمثالك من القطط المنزلية لم تعِ ولن تعيَ أهمية تلك الثروة في تلك الأيام.
- ربما ... ماذا بعد أن غادر الوحش البرتقالي؟
- لم يعد المكان كما كان.. في اليوم التالي أعلن القطّان ارتباطهما واختيارهما هذا المكان وطنا أبديا لهما.. ليس هذا كل ما حدث في اليوم التالي.
- ماذا حدث أيضا؟

- عاد الوحش من جديد وفي نفس التوقيت.. ليفرغ ما في جوفه من جديد فوق ما تركه في أمسه.

- ازدادت الثروة إذا ...هئ هئ هئ.

لم يخفَ على القط الفتيّ عدم استجابة الكهل لدعابته .. استمر في سرده:

- بعد أيام وصلت أنباء تلك الثروة إلى أزواج آخرين من القطط.. سارعت للتأكد من صحة النبأ.. بقاؤهما كان دليلا واضحا على تصديقها للنبأ.

زحف ظل الجدار ليلتصق بجداره.. اتخذا مكاناً جديداً أكثر برودة وأوفر ظلا.. واصل الكهل روايته:

- بدا المكان أكثر ألفة .. ولد الجيل الأول من أبناء القادمين الأوائل.. كانوا أكثر نضارة.. وأصلب عودا من جيل الآباء.

- هل كنت ضمن هؤلاء القادمين الجدد؟

- كلا.. أنا كنت من أبناء الجيل الثاني في الوطن الجديد الذي ولد فيه آبائي.

- أوه .. حسنا .. أكمل.

- جاء زوار آخرون للمكان من غير أمم القطط.. راق لهم المكان أيضا فقرروا البقاء.

- أمم أخرى؟

- نعم وصلت طلائع من الجرابيع والقنادش.. يقال أن الوحش البرتقالي هو من لفظها في المكان.

- هذا يعني أن الوحش البرتقالي استمر في زياراته اليومية.

- نعم .. مع الأيام زاد عددها أيضا.. واختلف وقت وصولها .. تقول أمي إنه بعد أن كثرت زيارات الوحوش البرتقالية اللون برائحتها الكريهة وصل معها ذات يوم مجموعة من الجراء الصغيرة.

- جراء صغيرة.

- نعم كانوا الجيل الأول من أمة الكلاب التي تستوطن المكان

- الكلاب.. تلك الأمة البائسة .

- في البداية سارت الحياة عادية.. فالخير كثير والعدد قليل.. لكن الأمر لم يدم طويلاً..

❖❖❖

- تكاثرت الكلاب بسرعة أيضاً.. كذلك القنادش والجرذان والجرابيع.. وجدوا في المكان مرتعاً خصباً.. صار المكان مزدحماً في فترة وجيزة.

- لابد من حدوث مواجهات في مثل هذه الظروف.

- نعم.. هذا ما حدث.. صارت كل فئة تحاول الاستحواذ على المكان وتسيطر عليه.

- هذا ما يحدث دائما في المجتمعات المختلطة.
- وصل الأمر لحد التقاتل.
- هذا فظيع.
- في هذا الوقت بالذات ولد والداي..

أوقفه أزيز ذبابة عن مواصلة سرده .. أكمل بعد أن ابتعدت:

- طالت فترة الصراع .. ترعرعا في هذه الأجواء.. ما إن شبّا عن الطوق حتى بدأ العنف يدبّ في الوطن كله.

عاودت الذبابة هجومها من جديدة .. حاول اصطيادها بقبضته .. نجحت في تفاديها .. واصل قائلا :

- المشكلة ليست في الصراع بين الأمم المختلفة فقط .
- ماذا أيضا ؟ .
- كان هناك صراعات أخرى بين الأمم نفسها .
- لم أفهم .
- بعد أن زادت أعداد القاطنين للمكان .. نشأت صراعات خارجية بين كل فئة وأخرى .. وصراعات داخلية وسط كل فئة .
- ما الغاية من هذه الصراعات ؟
- كان الأمر بحاجة لتنظيم .
- تنظيم ماذا ؟.
- تنظيم الحياة في المكان ليتسع للجميع .

- فهمت .

- هذا ما أجج الصراع أيضا بين أمة القطط .. أما باقي الأمم فقد وصلت لاختيار زعاماتها .

- ما الذي جعل القطط تتأخر في اختيار الزعامات بينما نجح غيرهم؟.

- إنها القوة .. خضعت بسرعة لسلطان القوة .

عادت الذبابة لتحوم حوله .. لم تكن وحدها هذه المرة .. اصطحبت معها رفيقة أكثر **إزعاجا** وإلحاحا .. واجههما بقبضته وببعض الشتائم المناسبة .. غادرت بعد **أن أعانه** الفتى ببعض الشتائم والمطاردة ..

- كانت هناك صراعات داخلية بين القطط .. وكذلك الحال بين الكلاب .. القنادش والجرابيع كانت أكثر هدوًا وأكثر تنظيما وانقيادا ..

- ما السبب برأيك ؟

- لا أدري .. ربما هي طبيعة القطط الرافضة للانقياد .. أو ربما لتزايد عددنا الكبير .

- ماذا حصل بعدها ؟.

- لم تبال القطط بالأمر في البداية .. استمرت على حالة الفوضى ..

عادت الذبابة وحدها من جديد لمضايقته .. حاول إهمالها .. لكنها كانت من الإلحاح والزنين ما نرفزه .. أفقدته أعصابه هذه المرة فصرخ وحاول اصطيادها .. فشل ككل مرة .. ابتعدت عنه .. استرجع هدوءه بصعوبة .. قال :

- قاد البعض حملة لتوعية القطط بأهمية اختيار زعامات .. كان الأمر صعبا جدا عليهم لعدم استجابة القطط .. فقد استمرأت العيش في الحرية المطلقة .. كان الأمر أشبه بالمستحيل .

- المستحيل !.. ألهذه الدرجة ؟

- نعم .. في هذا الوقت تعارف أبواي .. كانا من الداعين لهذا الطرح المهم .. كان شعارهم .. "وحدة القطط فيها حياتها".

- شعار جميل .

- ليس بالشعارات وحدها تعيش الأمم .

- صدقت .. ماذا حدث بعد ذلك ؟ .. وماذا فعل أسلافنا ؟

- تحتاج الأمم إلى جانب الشعارات إلى من يقودها لحمل هذا الشعار..

استمرأت أمتنا الفوضى وعشقتها .. كانوا يخشون من الانتظام تحت زعيم أو زعامة أو قانون .

- لكن هذا من متطلبات الحياة .

- لم تستوعب القطط ذلك ..

- ماذا عن والديك ؟

- عملوا بهمة .. حصدوا نجاحا ضئيلا .. انضم إليهم بعض القطط الشابة .. لكن لا تخلو الحياة من منغصات .

- ما الذي جرى ؟ .

صراع

تقلص الظل .. تحرك القطان من مكانهما .. سارا في الساحة بحثا عن ظل جديد .. وجدا ضالتهما في برميل قديم .. منحه الصدأ لونا قبيحا بدل لونه القديم البراق .. كان متكئا على جنبه إعياءً .. ارتاح من وقوفٍ دام طويلا .. طحنته التجارب التي عاشها .. أفقدته الأهوال استدارته المعهودة .. صار شبحا لشيء كان يوما ما برميلا .. وجدا فيه ضالتهما .. دخلاه .. بدا واضحا للكهل شغف الفتيّ بمعرفة التفاصيل .. واصل سرده :

- شعرت القطط بحاجتها للزعيم .. اقتنعت بأهمية ذلك .. خصوصا أن الأمم المشاركة لهم في المكان اتخذت لها زعاماتها وأصبحت أكثر انتظاما .
- لماذا تأخرت القطط في اختيار زعاماتها ؟
- المشكلة كانت في آلية الاختيار فقط .
- هذا دائما ما يحدث في الأمم المتخلفة .
- ليس بالضرورة .. فلا أعتقد أن الكلاب والجرابيع أكثر تطورا منا .. بل كانوا أكثر قبولا لفكرة الزعامات .. لأنهم فهموا أن في ذلك خيرا لهم من التشتت .. فآمنوا بها وسارعوا لتنفيذها .

- بينما القطط تراوح في فوضاها .
- المشكلة كانت أن معظم القطط كانت ترى في نفسها أهلا للزعامة وهذه كارثة بحد ذاتها .
- كيف تصرفت القطط ؟
- اقترب الشباب بقيادة والديّ وفريقهما من الوصول إلى آلية لاختيار الزعيم والاتفاق عليها .
- جميل هذا تطور يحسب لهم .
- حدث في ذلك اليوم ما أفسد كل شيء .

❖❖❖

لاحقتهم الذبابة إلى جوف البرميل .. كان لزنينها صدىً مزعجا هذه المرة .. لم يسلم الفتى أيضا من مناوشاتها .. حاولا معا طردها بلكمات تفادتها بمهارة .. بعد لأي تركتهما إلى حين على ما يبدو .. استرجع نزيلا البرميل هدوئهما .. سأله القط الفتيّ :

- ماذا جرى في ذلك اليوم ؟
- نعم .. في ذلك اليوم .. دعا النشطاء لاجتماع وصفوه بالهام .. انعقد الاجتماع .. صحيح أن الحضور لم يكن مشجعا حسب وصف والدتي .. لكنه كان خطوة مهمة في تاريخ القطط ..
- جميل .. خطوة هامة تحسب للنشطاء .

- حضر ممثلوا فئات وأنواع مختلفة من القطط .. ما **إن** بدأ الاجتماع بالقطط الشابة .. حتى هجم عليهم بعض الرافضين للفكرة ..

- ما غايتهم من فوضى القطط ؟

- لا أعلم .. لكن من الواضح أن مهمتهم كانت إفساد الاجتماع فقط .. يبدو أن هناك من يخشى أن يتزعم القطط أولئك الشباب النشطاء ..

- ماذا في ذلك ؟ .. كان المهم هو اختيار زعامة يقود القطط .

- هناك من يفكر بطريقة مغايرة ..

- إلى ماذا آلت الأمور ؟

- شب عراك بين الفريقين .. انجر النشطاء للعراك أيضا ..

- هذا مؤسف !.

- هذا ما كان يسعى له من خطط لإفساد مهمة النشطاء .

- إذًا لماذا لم يتقدموا لتزعم القطط بدل إفساد ما بناه النشطاء؟ .

- ربما لم تكن الحسابات في **أول** الأمر بهذه الطريقة .. لكن ليس هذا كل شيء .

❖❖❖

- ماذا حدث أيضا ؟

- اتسعت دائرة العراك .. انضمت قطط لكل فريق .. انقسمت القطط إلى فريقين كبيرين .

- متخاصمان .

- نعم .. للأسف كان هناك من يراقب الأمور عن كثب على ما يبدو ويخطط بطريقة مختلفة عن طريقة النشطاء .

- ليس كل ما يحدث للقطط يعتبر مصادفة .

- نعم .. واصلت القطط صراعها .. طارد كل فريق الفريق الآخر .. سالت دماء كثيرة .. سقط جرحى كثيرون من كلا الطرفين .

- أبي كان من ضمن من تعرض لمحاولة قتل متعمدة .

- أوه ... إذًا الأمر استفحل كثيرا !.

- نعم بل أكثر مما تتصور ..

- أين عقلاء القطط ؟.. أين حكماؤها ؟

- حتى الكلاب اكتفت بالفرجة والابتسام من فوق أكوام الفضلات .. الجرابيع جعلت من ذلك اليوم عيدا .

حاولت الذبابة الدخول إلى جوف البرميل .. ضربها الفتى بقبضته الفتية .. كاد أن يصيبها .. فضلت الابتعاد بدل المغامرة .. أكمل الكهل سرده :

- كاد النهار أن ينتهي .. لم تصل القطط لوقف الاقتتال .. هنا حدث ما لم يتوقعه أحد .

❖❖❖

- ما الذي حدث ؟

- صاح بأعلى صوته .. فتوقف الفريقان عن العراك والتقافز والتصارع .

- من يكون ؟

- قط .

- قط !

- كان الخصمان ينتظران مثل هذه الصيحة .. فقد نال منهم التعب .. وأرهقهم التقاتل .

- من يكون هذا القط ؟

- كان قطا عاديا قبل ذلك اليوم ..

قطعت الذبابة من جديد حديثهما .. حامت فوق رأسيهما .. نفذ صبرهما .. حاولا معا القضاء عليها .. أحسنت التخلص ككل مرة من قبضتيهما .. فضلت مغادرة جوف البرميل :

- لكنه لم يعد كذلك بعد ذلك اليوم .

- ما الذي غيره ؟.

- كان قطا مهملا وعاديا .. صحيح أنه كان ضخما بعض الشيء وفظا .. فقد إحدى عينيه في شجار .. هذا فقط ما كان يميزه ....

- حدثتني أمي أنه كان يتودد إليها راغبا في الاقتران بها .. لكنها صدته مرارا .. **انزوى** بعيدا وحيدا .

- ماذا حدث بعد ذلك ؟

- ظهر في ذلك اليوم فجأة .. طلب إيقاف النزاع .. توقفت القطط ليس رغبة في السلام .. بل تعبا من القتال .

- المهم **أن** القتال والعراك انتهى .

- ليس بهذه السهولة .. فوجئت القطط بعد ذلك عندما أعلن نفسه زعيماً .

- زعيماً على القطط ؟

- نعم ...

- هل رضخت له باقي القطط ؟

- في أول الأمر استقبلت القطط إعلانه بعاصفة من السخرية .. لكنه حسم الأمر سريعا .

- كيف حسمه ؟ ..

أصبحت القصة الآن أكثر تشويقا .

- قفز على أقرب قط من المستهزئين من إعلانه .. صرعه بضربة واحدة .. سالت دماؤه غزيرة .

- أوه .. هل تعني أنه استعمل العنف ؟

- وقف الجميع مبهوتين من هول الفاجعة .. لم يتدخل أحد .. ولم يرد عليه أحد .. كانت القطط منهكة من صراعها .. ومصدومة مما يجري أمامها .

- ماذا عن الناشطين ؟ .

- الأمر يطول شرحه .

تململ الكهل في جوف البرميل .. جعلت منه حرارة الشمس أشبه بفرن ..شعر القط الفتيّ بشعور الكهل كذلك .. فقال :

- قد نكمل غدا ما بدأنه اليوم .. هل أطمع أن ألقاك هنا ؟

- ليس لي سوى هذا المكان أجتر فيه ذكرياتي .. ستجدني غدا كما وجدتني اليوم .

خرجا من البرميل .. سارا في اتجاه الجدار .. ودع الفتيّ الكهل على مشارف الوطن .. حمّله سلاما لوالدته العجوز .

زعامة

كان صباحا مميزا .. نشرت شمسه أشعتها بهدوء على أرجاء المكان .. بجوار بقايا الجدار قط عجوز .. يحاول أن يغتنم غفوته الصباحية .. كوّم رأسه بين قائمتيه الأماميتين .. فشل – أيضا - هذا الصباح في الحصول على بغيته .. لم يكن للذباب دخل في فشله .. كان السبب هذه المرة انتظار وصول ضيفه الفتيّ ..

بدا لعينيه المنهكتين الضعيفتين اقتراب شبح من المكان .. انتابه شعور بالسرور .. اقترب الشبح أكثر .. انقسم إلى شبحين .. اتضح لعينيه الضعيفتين أن القط الفتي لم يكن وحده هذا الصباح .. اصطحب معه ضيفا آخر .. زاد سروره .. صار المكان أقل وحشة من قبل .. اكتشف بعد اقترابهما أنه لم يصطحب قطا .. بل قطة جميلة رقيقة .. تبادل معهما التحايا ..

- جئنا لنستمتع بسردك لتاريخ أجدادنا .
- أنا أيضا بتُ على شوق لهذا اللقاء .
- أعدتٌ سرد ما رويته لي من أحداث بالأمس على آنستي وخطيبتي .. فأصرت على الحضور والاستمتاع باستماع الباقي من أحداث تاريخ الوطن .. خصوصا أنها مهتمة بتاريخ القطط وتحاول أن تؤرخ الكثير من الأحداث القططية .

- أهلا بها بيننا .. أرجو أن يسرها ماضي أسلافها .

- بالأمس توقف بنا الحديث عند القط .. ذلك الذي أعلن نفسه زعيما على شعب القطط .. كنت سألتك عن موقف النشطاء الذين تقدموا في محاولاتهم لقيادة القطط وإفهامهم أهمية اختيار الزعماء .

عدل الكهل من موضع جلوسه .. صار مواجها لسامعيه بدا الحماس واضحا في وجهي القطين الشابين .. قال :

- بعد أن أزهق روح ذلك القط الذي سخر منه .. عقدت المفاجأة ألسنة الجميع .. بمن فيهم النشطاء الذين أسقط في أيديهم .. خصوصا بعد أن اتهمهم صراحة بأنهم وراء الدماء التي سالت .

ماءت القطة الشابة قائلة :

- يا له من قط متعجرف .

- بنى اتهامه على أنهم وراء الرغبة في تغيير حياة القطط وأنهم من أصر على مجاراة الأمم المجاورة للقطط من كلاب عدوة وجرابيع مقيتة .

سأل القط الفتيّ :

- هل اقتنعت القطط بهذا الاتهام ؟

- إما أنها اقتنعت وإما أنها خافت منه ..

أضافت القطة الشابة :

- ربما رغبتها بالبقاء على نمطها التقليدي هو ما جعلها توافق القط المتعجرف على ما قاله .

تنهد القط الكهل .. مضى في سرده :

- لكن القطط لم تبق إلى نمط حياتها القديم بعد ذلك اليوم الدموي .

اجتاح الصمت مجلسهم .. لفحت وجوههم نسمة باردة .. قال الكهل متنهدا :

- صارت لأمم القطط هموم جديدة .. إضافة لما لها من هموم سابقة .

❖❖❖

سار القطان خلف الكهل .. عرفهما على ما تبقى من ملامح مكان كان يوما وطنا للأجداد .. وقف وسط الخلاء .. توجه بحديثه للشابين :

- هنا أفرغ ذلك الوحش البرتقالي اللون ما في جوفه لأول مرة .

وقف القطان منبهرين في المكان .. في محاولة تسجيل الحدث في ذاكرتهما لنقله إلى أسلاف قادمة من القطط .

- منذ ذلك اليوم تغيرت حياة القطط .

أضاف بنبرة حزينة :

- لا أحد يذكر اسم القطين الذين كانا أول من استوطن المكان .

- عيب القطط أنها لا تدون تاريخها .. تكتفي بترديده دون أسماء صانعيه .

قالت القطة بحماس الشباب :

- علينا أن نغير الكثير من الأشياء إذا أرادت القطط أن تلحق بركب الأمم الأخرى .

- هذا ما على جيلكم القيام به .. فالقطط تستطيع القيام بالكثير إذا تخلت عن النوم في كل وقت وحين .

سار من جديد في أرجاء المكان .. وقف بعد مسيرة غير يسيرة :

- في هذا المكان إذا لم تخني الذاكرة صُرع ذلك القط .

قالت القطة بلوعة :

- يا للمسكين .. الكل يذكر الحادثة ولا أحد يذكر القط .. إنها مأساة القطط ككل مرة .

قال القط الكهل متحسرا :

- فقد المسكين حياته .. ومن ذلك اليوم ضيعت القطط ماضيها ولم تحسن استبداله بمستقبل أحسن .

سارت القطط الثلاث في رحلة العودة إلى الجدار .. اتخذوا مجالسهم في ظله .

❖ ❖ ❖

باتت القطط منذ تلك الليلة تحت حكم زعيم .

افتتح الكهل حديثه متحسرا .. أضاف متأسفا :

- وأي زعيم !

كان الدور على القط الفتيّ ليطرح سؤاله :

- هل رضخت القطط كلها بهذه السهولة ؟ .

أجابه الكهل مفسرا :

- تلك الليلة انقسمت القطط إلى ثلاثة أقسام .. قسم سار حاملا الزعيم فوق الأعناق .. راضخا له .. محتفلا به متوجا له زعيما عليها وهو القسم الأكبر .. القسم الثاني عاد إلى أوكاره حائرا فيما حدث .. مصدوما .. غير مستوعب لما جرى .. باحثا عن تفسير لما آلت إليه الأمور .

سكت الكهل ملتقطا أنفاسه .. سألته القطة متلهفة على معرفة التفاصيل:

- ماذا عن القسم الثالث ؟ .

- كان القسم الثالث أقل الأقسام عددا وأكثرهم حيرة .

- هل تعني بهذا القسم النشطاء ؟ .

- نعم .

- يبدو أن للقطط رعاعها كما لسائر الأمم .

أيد الكهل بإيماءة من رأسه وأضاف :

- انسحب النشطاء من المكان لتدارس الأمر ..

تحمست القطة الشابة فقالت :

- وماذا أسفر عن اجتماعهم .

تنهد القط قبل أن يضيف :

- حدث ما لم يتوقعه أحد منهم .

❖❖❖

" تتساوى القطط كلها في نظر فأر " .

حكمة تناقلتها أمم القطط منذ أجيال بعيدة .. لا أحد يعرف متى نطق بها أحدهم .. لكن ما عرفه النشطاء فيما بعد هو تعديل لهذه الحكمة القديمة .. أو بالأحرى إضافة جديدة .. رأى الكثيرون انها في محلها ..

حمل شطر الحكمة الأول تجربة الأجداد .. أما الشطر الآخر لها فقد حمل معاناة الأسلاف .. صار الشطران شعار النشطاء منذ ذلك الوقت.

" تتساوى القطط كلها في نظر فأر ... كما يجب أن تتساوى في عين زعيم القطط " .

لم تكن الأمم المجاورة لنا في الوطن أكثر امتعاضا من الناشطين مما حدث .. فقد اعتقدوا أن تزعم قط على باقي القطط يقويها .. بل ربما يجعل منها قوى لا يستهان بها .. عكس ما إذا كانت تعيش في فوضاها العارمة ..

كان النشطاء يخططون لمستقبل أمة القطط بطريقة مختلفة عما آلت إليه الأمور ..

" انتزاع ذلك القط للزعامة بتلك الطريقة أفسد كل ما كانوا قد خططوا له .. "

ذكرهم ذلك بحكمة تتناقلها الأمم الأخرى عن القطط ..

" القطط أمة مستعجلة إضافة لكونها أمة اتكالية وكسولة "

" لم تبال القطط في يوم من الأيام عما كانت تقوله عنها باقي الأمم .. لم يكن يهمها أن تصلح من شأنها أمام باقي الأمم .. كان همها الوحيد في لقمة طرية ونومة هنية .. "

" هذا ما حاول النشطاء تغييره في عالم القطط الغريب " .

تنهد القط الكهل طويلا قبل أن يضيف متأسفا :

- لكن ذلك القط أفسد كل شيء بتزعمه بتلك الطريقة المخجلة .

❖❖❖

-لم يكتفِ القط باستيلائه على زعامة القطط التي رضخت معظمها له بسهولة غريبة منذ أول ليلة .. بل حاول التضييق على النشطاء .

تفاعلت القطة الشابة مع رواية الكهل ولم تفوت فرصة للتعليق فقالت :

- ضيع ذلك الزعيم فرصة مهمة لتقدم القطط على من جاورها من ألامم .

- نعم لكنه كان عمليا وسريعا أكثر من النشطاء .. سرعان ما أرسل وفدا لزعيم الكلاب وكذلك زعيم الجرابيع من أجل التفاوض .. على العيش في سلام في نفس المكان .. خصوصا أن ذلك الوحش البرتقالي زاد من زياراته اليومية كمًا ونوعًا .. ما يفرض على الجميع ضرورة التوافق في كيفية توزيع الأرض والثروة.

- يا له من متسلط .

- لم تفوت الكلاب الفرصة فأرسل زعيمها وفدا للتهنئة أولا .. فكان ذلك المسمار الأخير في بناء عرش ذلك الزعيم .. فاعتراف الغرماء به زعيما سهل عليه الأمر كثيرا .. بينما القطط التي لم تكن تبال

حتى ذلك الوقت بما يحدث .. اعتبرت الأمر مجرد نزوة عابرة وتنتهي وتعود الأمور لما كانت عليه .

- ماذا كان موقف النشطاء ؟

- حدثتني أمي أنهم تعرضوا لصنوف التقييد والتضييق والمراقبة منذ الصباح الأول من قبل أتباع القط الذين كانوا في تزايد يوميا .... كما كانوا من الوفاء له والاستعداد لتنفيذ أوامره حتى لو مست بحياة أقرب القطط إليهم .

قاطع الفتى حديث الكهل بقوله :

- هكذا هم الطغاة دائما يحسنون استثمار العبيد وتوظيفهم بما يحقق رغباتهم وطموحاتهم وبما يكرس سيادتهم عليهم .

واصل الكهل حديثه :

- روت أمي – أيضا - أن والدي تعرض للاعتداء عليه في محاولة للتخلص منه خصوصا وأنه كان أبرز النشطاء نشاطا ورغبة في تطوير أمة القطط .

- يا له من قط متعجرف .. ماذا حدث بعد ذلك ؟.

- لم يكتفِ بذلك بل أرسل يطلب اللقاء بوالدتي مباشرة بعد تنصيبه رسميا وانتهائه من مقابلة وفود التهنئة .

سألت القطة الشابة بحماسة :

- لماذا طلبها لهذا اللقاء ؟.

عرش مهزوز

وصل رسول الزعيم .. لم يكن بمقدورها طرده أو حتى رفض طلب الزعيم للزيارة .. خصوصا أنه كان لبقا ومؤدبا معها .. كانت في شوق لمعرفة ما يفكر فيه ذلك القط الذي كان مجهولا في الماضي للجميع .. وحدها كانت لها موقف سابق معه .

لم تخبر والدي بطلب القط الزعيم لمقابلتها .. كانت تعلم مدى حساسية الوضع الجديد لكلا القطين .. حاولت أن تجعل من نفسها طرفا في حل ينقذ القطط من مغبة ما يمكن أن تؤول إليه الأمور ..

ذهبت إلى المكان الذي اتخذ منه الزعيم مقرا للحكم وقيادة القطط والزعامة عليهم .. استقبلها استقبالا مميزا .. فرح كثيرا لتلبيتها طلب الحضور .. اعتبر ذلك خطوة جيدة في صالحه ..

تغير شكله عما عهدت .. صار أكثر سمنة وأكثر جرأة وأكثر أناقة .. أخفى عور عينه خلف نظارة سوداء .. ما إن رآها حتى هب من عرشه لاستقبالها .. وقفا أمام بعضهما طويلا ..

كان ينتظر أن تبادر بتقديم التهاني له بعدما صار زعيما للقطط ..

كانت بدورها تنتظر أن يبوح لها عن سبب طلبه لها بالزيارة .. طالت وقفتهما ..

أخيرا قرر الزعيم الجديد كسر حاجز الصمت :

- توقعت أن تسارعي بتقديم التهاني لي كما فعلت كل القطط .
- هل أنت واثق أن كل القطط هنأتك ؟
- بعض الرعاع لا يأبه لهم .. العبرة بجمهور القطط .
- يبدو أني كذلك من أولئك الرعاع .

حاول أن يخرج من الحرج الذي وضع فيه نفسه :

- أنت لست كذلك .. بل أنت أكبر من ذلك .. تعرفين مكانتك عندي .

قررت أن تضعه في حجمه الطبيعي فقالت :

- أنت –أيضا – تعرف مكانتك عندي .

التقم الحجر بروح رياضية .. أجاب باسما مذكرا لها بما آلت إليه الأمور :

- بقاء الحال من المحال ..
- كانت غايتنا الوصول إلى الأفضل .
- ها أنا الآن سأقودكم نحو هذا الأفضل .

- كان نهجنا تثقيف القطط وتوعيتها .. وليس إخافتها والسيطرة عليها بإرهابها .
- ما يصلح لأمة ما قد لا يصلح لغيرها من الأمم .
- أنت بهذا تحكم على أمة القطط من خلال منظارك وحدك .
- ما لا تعرفونه عن القطط هو أنها لا يمكن أن تتطور .
- كنا قد قطعنا شوطا طيبا قبل أن تعيدنا إلى المربع الأول .
- لا فائدة من البكاء على الأطلال كما يقول حكماء القطط نقلا عن حكماء أمم أخرى.. ها أنا ذا أدعوك لمشاركتي هذا الأمر .
- لا أعتقد أن هذا الأمر يعني لك ما يعنيه لي فمن الصعب أن نتشارك فيه .

قال في رجاء :

- لا تستبقي الأحكام .. لنتشارك أولا .. فربما في ذلك مصلحة للقطط.
- هل تهمك فعلا مصلحة القطط ؟
- يبدو أن ذلك القط الأرعن قد سلب لبك وقلبك .
- هنا قررت والدتي إنهاء اللقاء .. غادرته .. تركته يبتلع الإهانة من جديد .

٢

- يا له من متغطرس !

قاطعته القطة الشابة بحماس .. سأله الفتيّ أيضا :

- ماذا عن والدك ؟

- في البداية تعرض للمضايقة من أنصار القط الزعيم .. كان يعتقد أن الأمر يتعلق بنشاطهم في تثقيف وتطوير القطط .. اتضح بعد أيام خطؤه .. فقد كان الأمر بعيدا عن ذلك تماما .. كان الزعيم يعيد محاولة قد فشل فيها من قبل .. عاد يطلب وصلا لحبال قطعت من قبل.

أعاد طلب ارتباطه بوالدتي .. هذه المرة اتخذ أسلوبا جديدا .. حاول إغراء أهلها بالموافقة على طلبه .. ما يجعل منهم في أعلى المراتب في دولة القطط الجديدة التي يزعم بنائها .

- وهل وافقوا على طلبه ؟

- كان من الصعب رد الزعيم الجديد .. خصوصا أنه ظهر بمظهر لطيف معهم .. وفرش أمامهم دربا من الأحلام الوردية ما يجعل أي قط يوافق على عرضه بسهولة .. لكنهم اصطدموا برفضها .. بل وإصرارها على هذا الرفض .. حاولوا إقناعها بشتى الوسائل .. كان ردها حاسما .

علقت القطة الشابة :

- كم أنا فخورة بها .. يا لها من قطة شجاعة .

وصل الكهل سرده لذلك الحدث :

- كان على الزعيم أن يغير من خططه .. فقد كان عليه أن يثبت أركان حكمه ...وأن يظهر بمظهر القوي أمام باقي القطط ولو على حساب الآخرين ورغباتهم .. هنا كان عليه أن يضغط على والدي وأن يضيق عليه الخناق .. فهو يعلم كما يعلم الزعيم ومعظم القطط أن والدتي تميل إليه .. فكان عليه اتخاذ خطوة مهمة في تاريخه وتاريخ القطط في هذا الوطن كله .

❖❖❖

كان الزعيم يحتفل بتتويجه زعيما هناك أعلى تلك التلة ..

التفت حوله القطط .. بكل ألوانها ومشاربها وأشكالها .

مظاهر الفرح مرسومة على أرجاء الوطن كله احتفالا بهذه المناسبة ..

شارك كذلك الحفل ضيوف من الأمم المجاورة لنا في فضاء الوطن .. من كلاب وجرابيع وجرذان وقنادش وثعالب .

تعالت أصوات المحتفلين وصرخاتهم إلى عنان السماء .

أكلوا وشربوا وشبعوا .. تبادلوا الأنخاب أيضا .

هناك في الطرف القصي من الوطن .. أعلى تلك الربوة اجتمعت ثلة ..

كانت هي الأخرى تحتفل ..

كان احتفالها بشيء آخر لا علاقة له بتتويج الزعيم .

كان ذلك الاحتفال تحديا صارخا للزعيم وسلطانه وسلطته وسطوته أيضا .

كانوا يحتفلون بعرس أبي على والدتي ..

هتفت القطة الشابة في حماسة :

- يالهم من أبطال .

صمت صخب تلك الليلة مع مطلع النهار .. عاد كل قط إلى مكانه .. غادر ضيوف الزعيم في حفاوة ..

نقلت عيون الزعيم أنباء تلك الثلة ..

استشاط غيظا واشتعل غضبا وقهرا .. قرأ في فعلهم التحدي له ولسلطانه ..

في ذلك الصباح أعلن عليهم حربا لا هوادة ولا هدنة فيها .

حرب الفرقاء

" بدأ حكمه بتوطيد أركان عرشه أولا .. أجرى فور تنصيبه مفاوضات مع الجيران حول توزيع مناطق النفوذ لكل أمة من الأمم، تنازل عن الكثير من الأراضي لصالح الكلاب والثعالب كسبا لودهم وتدعيما لموقفه بين القطط ..

صفق له أعوانه كثيرا .. اعتبروا ذلك إنجازا غير مسبوق .. وصفوه أيضا بالهام والتاريخي للقطط ..

اعترض النشطاء على هذا التنازل .. خصوصا أن القطط أكثر الأمم عددا في الوطن .. بينوا لهم أيضا أن لهم أحقية في الحصول على نفوذ أكثر في وطن كانوا هم السباقين إليه .

اعتبر الزعيم اعتراضهم حسدا وبغضا .. مرر أتباعه ذلك بين القطط .. صار النشطاء منبوذين .. تحاشى الجميع مخالطتهم إما خوفا من الزعيم أو قناعة بما أشاعه عنهم .

لم يتوقفوا عن بذل النصح للقطط رغم ما لاقوه من أضرار اجتماعية ومادية ..

لم يكتفِ القط الزعيم بشن الإشاعات عنهم في كل مرة .. بل حاول تشتيت شملهم وتفريق صفهم .. تارة بالإغراء وتارة بتحريض القطط عليهم ..

لكنهم استمروا في صمودهم ..

واصل هو حربهم على جبهتين متوازيتين .

- تسائل القط الفتيّ مستغربا :
- جبهتين ؟
- نعم .. جبهة في السياسة والأخرى في الغرام .

قالت القطة الشابة في غضب :

- الغرام ؟؟
- اعتبر زواج أبي من أمي طعنة في شرفه كزعيم للقطط .. حاول بشتى الوسائل إصلاح هذا الخلل .. وعلاج تلك الطعنة .

❖❖❖

منذ أيامه الأولى أعلن عن نفسه دون مواربة أو خجل .. أصدر بيانه التاريخي الأول .. ضمنه برنامجه في خمس فقرات .

كان على رأس أولوياته أنه على القطط أن تتنازل له عن أفضل ما تجود به تلك الوحوش البرتقالية من فضلات .. لم يكتفِ بهذا

الأمر بل علل قائلا إن هذا من متطلبات منصبه الجديد .. موضحا أن على الزعيم أن يكون في رغد وهناء من العيش .

.. كان شرطه الثاني أكثر استفزازا .. فقد أمر فيه القطط أن تتناوب في حراسته ليل نهار .. وأن تنتظم في برنامج معد من طرفه في صفوف الحراسات .. لم يقتصر الأمر على ذكور القطط بل شمل إناثها أيضا .

أما فقرته الثالثة فقد كانت تصب في مصلحة تثبيت عرشه إذ اعتبر أي نوع من الاعتراض على أقواله أو أفعاله خيانة .. مؤكدا أن مرتكبها يستحق أشد أنواع العقاب .

رابع فقرات بيانه الذي وصفته القطط فيما بعد بالتاريخي .. كانت تتحدث عن رغبته في تطوير القطط وتحضيرها والسير بها نحو مستقبل افضل .

أما خامس نقاطه فقد أعلن أن للقطط الحرية المطلقة في أرضها .. تسرح وتمرح وتفرح فيه كيفما يحلو لها ..

هللت القطط الشابة لهذا البيان .. عم الفرح أرجاء المكان ..

بعض الكهول تحسروا على ماضٍ عاشته القطط في حرية .. ضيعته بنفسها بانجرارها وراء قط أرعن .. كل مؤهلاته ضخامة جسمه وشراسته وعور في عينه .

لم يفهم الشباب حينها مغزى لتجهم وجوههم وعبوسها .. انخرطوا في احتفالات متتالية وصاخبة ومؤيدة .

❖❖❖

فشل في حربيه .. حربه المهمة في مضمار السياسة .. وحربه الضرورية في بحار الغرام .

حربه مع خصومه النشطاء لم تتوقف .. بل صارت أكثر شراسة .. اضطر النشطاء للعمل السري من أجل إنقاذ القطط من زعيمهم الديكتاتور .. بدأ يتشكل وعي حقيقي لدى القطط بخطورة المستقبل ..

بدأت كذلك تتكون مجموعات تعمل للقضاء على الزعيم وإبعاده .. لم يكن همها مستقبل القطط .. بل كان هدفها الوصول للزعامة التي استأثر بها القط الشرس الأعور .

أما معركته الغرامية فقد باءت بفشل ذريع .. على الرغم من أن إشارة منه كافية لخضوع أي قطة يرغب فيها .. لكنّ كبريائه الجريح

كان بحاجة لجبره .. ولا يجبر كسير الحب إلا الوصال .. وهذا الدواء لم يتمكن من الحصول عليه .. فقد سدت أمامه أبواب أمي بمتاريس من الرفض .

حاول تعويض فشله في الغرام بتعزيز نصره السياسي .. أكثر من الاحتفالات .. مبتكرا في كل مرة مناسبة جديدة .. مخترعا نصرا موهوما ..

انشغلت القطط في الاحتفال بأوهامه .. تغافلت أو غفلت أنها صارت تفقد حريتها التي كانت تملكها ..

تقاطرت عليه شعراء القطط .. سطرت مطولات القصائد في مدحه ووصف مآثره .. تسابق المطربون والمغنون بغناء الأناشيد لبطولاته وفتوحاته .

فضلت كهول القطط الغياب عن المشهد كله .. اختارت أماكن منزوية .. اختلت فيها بعيدا .. دفنت فيه همومها وجبنها ..

جاهر بعض الكهول برفضهم لما جاء في البيان ولكل تصرفات الزعيم .. تعرضوا للسب والإهانة والضرب أيضا ..

الغالبية الباقية استمرت في تصفيقها للزعيم .

بعض شباب القطط غادروا إلى أماكن مجهولة ..

سأله القط الشاب :

- ماذا عن والديك والنشطاء ؟

تعرض والدي للتضييق من أتباع الزعيم .. في محاولة بائسة لإجباره على الانكسار أمام رغبات الزعيم السياسية والعاطفية .. لكنه كان صلبا في موقفه من كلا الأمرين .

تحمل صنوف الأذى .. هذا ما سهل انتشار أفكاره بين القطط .. فقد بدأت القطط تتشمم ما وقعت فيه من خطأ بإعراضها عن النشطاء..

في هذه الأجواء كان مولدي .

فرح والداي بي كثيرا .. احتفلا بميلادي أيضا .

اغتاظ الزعيم بعد سماعه خبر مولدي ..

جن جنونه بعد احتفالهما بي ..

كان مولدي بمثابة رسالة صارخة مفادها رفض أحلامه وتطلعاته وقطع الطريق أمام رغباته .

بعد أيام شن حملة مسعورة .. شملت أرجاء الوطن .

قبض أتباعه فيها على والدي ومجموعة من النشطاء ..

تسربت شائعات أنهم عملاء .. بعضهم اتهم بالعمالة للكلاب .. والبعض ألبس تهمة العمالة للثعالب .. والطريف أن والدي وصم بتهمة العمالة للجرابيع هههههه هههه.

كانت أجواءً سيئة تلك التي عشتها في طفولتي ..

عشت في أسرة مشتتة .. الحزن يخيم على سمائها .. والخوف مزروع في وجدانها .. أما الأمل فمفقود ضائع .

عند ذلك حدث شيء جديد لم يحدث قط في تاريخ القطط .

غرباء

اشتدت حرارة المكان .. تحركت القطط الثلاثة بحثا عن ظل ظليل .. تكمل فيه ما بقي من رواية .. تحمل تاريخا شائكا لوطن القطط التائهة .

كان الخيار الوحيد برميل الأمس .. وَلجوه تباعا ..

اتخذ الكهل مجلسه قبالة مستمعيه .. تهيأ لإكمال حكايته .

دخلت ذبابة الأمس تستطلع المكان .. كانت تحلق فوق الرؤوس الثلاثة المنزعجة من حضورها ..

حامت كمن يتفحص هوياتهم .. خروجها من البرميل كان كإذن لهم باستعمال المكان إلى حين ..

قرأ الكهل في وجهي جليسيه اللهفة لإكمال ما بدأ فقال :

" نشأتُ في ظل وطن أبناؤه يعيشون فيه بلا أمل .. الكل يتربص بالآخر .. والكل يخشى من الآخر ..

زرع الزعيم في النفوس الخوف من المجهول .. فأحكم السيطرة على القطط الخائفة ..

آخر ما تفتق له ذهنه من أفكار للسيطرة على مجتمع القطط .. كان ذلك القرار الظالم .. على الرغم مما فيه من إهانة سافرة للقطط .. إلا أنها خضعت له ..

صار همها الحياة فقط ..

أدمنت الذل .. استمرأت الهوان .

سأله الفتيّ متبرما :

- ماذا يحمل هذا القرار ؟

" خصص الزعيم في قراره وقتا محددا .. يمكّن القطط فيه من البحث في تلك الأكوام عن رزقها .. من الفضلات التي تجود بها كل يوم تلك الوحوش البرتقالية .. "

- أكوام فضلات ! .. سمعت أنها جبال من الفضلات وليست أكواما .

- نعم .. إنها جبال .. تزداد إرتفاعاً وضخامة في كل يوم ..

- ماذا يقصد من وراء هذا القرار ؟

- الإذلال .. إذلال القطط وإحكام السيطرة عليها .. وإمعاناً في سفوره وغطرسته .. كان يتحكم في الوقت حسب هواه ومزاجه .. فتارة يزيده فتنعم القطط .. وتارات كثيرة كان يضيقه عليها .. فتتصارع وتتزاحم فيما بينها في تحصيل رزقها .

دخلت الذبابة لجوف البرميل في رحلة استطلاع جديدة .. غادرت من الجهة المقابلة بأزيز مزعج .. واصل الكهل بعد ذلك قائلاً :

- كان الوضع يتفاقم .. كل ما كان يشغل القطط هو لقمة عيشها ولا تهتم للوسيلة التي تنالها به .

استشعرت القطة المرارة فقالت :

- يا لها من قطط حليمة ! .. استغرب كيف صبرت عليه كل هذا الوقت !

- الخوف .. إنه السلاح الذي استخدمه للسيطرة على أمة كاملة ..

- زراعة الخوف .. حكمة نقلها إلينا عن طغاة الأمم الأخرى .. لتسيطر على قط عليك أن تشعره بالخوف وعدم الأمان .

- ما ينفع مع أمة قد لا يصلح مع أمة القطط .

- لكنه سلاح بتار .. استفاد منه باقتدار .

- ماذا صنعت القطط بعد هذا القرار الجائر ؟.

تنهد القط الكهل :

- امتلأت سجونه بمخالفيه .. كال لهم التهم ذات اليمين وذات الشمال .. بعد ذلك فهمت القطط اللعبة .

تخاوفت فتطاوعت .

- لم أفهم .

- كلا الطرفين وصل لقناعة مفادها .. القط المطيع أفضل من القط الخائف .. هو أرادها خائفة لتطيعه فتخاوفت له .. تصنعت الخوف ليشعر بطاعتها وسيطرته .. فنالت منه مرادها .

- ماذا نالت ؟

- الفتات .. فتات من الأكل يكفي لحاجتها .. فأعطته الفتات من الطاعة لترضي غروره .. فنال كل طرف غايته .. هو تمكن من الزعامة والقطط رضيت بالعيش الكفاف في ظل طاعته بدل التشرد في معصيته ..

- القطة الأم ماذا صنعت ؟

❖❖❖

ازدادت إصراراً على رفضه .. وعنادا على موقفها وأكثر ثباتا ..

فكنتُ ورقة الضغط الجديدة .. فقرر استعمالها .

حاول مرارا الإضرار بي لتخضع لرغباته .. لكنها تحملت آذاه بكل شموخ وكبرياء ..

كبرتُ .. كبر معي الرفض للزعيم .. امتلأ قلبي الصغير رغبة في التغيير ..

اتسعت دائرة الرفض الكتوم .. الجميع رافض .. الجميع صامت .. الجميع خائف .. مرات قليلة يحدث أن يجهر أحدهم في وجه الزعيم برفضه .. فيكون مصيره الغياب .. إما أن يغيب في سجونه الكثيرة .. أو يغيب بالفرار من عقابه ..

يقال أن هناك من غيبه بقتله .

صاحت القطة :

- يا لعار القطط .. هل يقتل القطط الرافضة لحكمه ؟

- الزعامة والوجاهة تتطلب التضحية .. سفك دماءً عزيزة من أجل تثبيت أركان زعامته .. جرد القطط من أهم أسلحتها .. كان على القطط إمعانا في إذلالها أن تتخلى عن مخالبها ..

صاح الشاب في هلع :

- تتخلى عن مخالبها ؟

زفرة الكهل في حرقة .. كان الغيظ بادٍ على القط الفتيّ .. قال الكهل :

- برر ذلك خوفه على سفك الدماء بين القطط .. أضاف سببٌ آخر ليدعم به قراره الخطير .. عدم حاجة القطط للمخالب في ظل حكومته الرشيدة وفي ظل الخير الذي تنعم به القطط في هذا الوطن .

عم البرميل صمت ثقيل .. قطعه الكهل :

- كانت القطط تطلع حولها .. ترى جيرانها ترفل في نعيم مقيم .. تقارنه بما صارت إليه حالها .. لم تجد مبررا واحدا للزعيم ليعاملها بهذه القسوة والمذلة .

- لابد أن القطط ثارت ضد هذا القرار الجائر؟

سأل الشاب الفتيّ وهو يتحسس مخالبه .. أجاب الكهل متأسفا :

- كلا .. خضعت أيضاً .. بل هللت له .. ووصفت رأيه بالحكمة أيضا ..

- يا للقطط البلهاء .

قال الكهل :

- دائماً هناك من يبرر له قراراته مهم كانت غبية أو جائرة ..

صاح الفتى :

- تباً .. كيف تحملت القطط كل هذا ؟

واصل الكهف سرد السيرة البائسة :

- استثنى من قراره الجائر قطط الدولة .. وحرسه الخاص ..

- قطط بلا مخالب .. عجبي !.

- أصبحت كل المخالب الموجودة طوع أمره وتحت سيطرته وسلطانه .

- يا لها من أجواء ويا له من وطن .

تدخلت القطة الشابة :

- ألم تدرك القطط خطورة تخليها عن مخالبها ؟ .. ما نفع القط بلا مخلب .. صارت هي والأرانب سواء .. إنها هويتها التي تتفرد بها .. يا للتعاسة ! .. يا لشماتة أمة الفئران بأمة القطط .

وصل الكهل السرد :

- مع ذلك كبرنا واشتد عودنا .. تناقلنا كراهيته همسا .. اخترعت القطط سلاحا لم يعرف عن أمتنا من قبل .

في استغراب تبادل القطان النظرات تساءل الشاب :

- سلاح جديد ؟

- النكات ..

كانت وسيلتنا للمقاومة .. تبادلنا النكت المضحكة .. كانت منفساً وحيداً للقطط .. أحسنت استغلاله .

- النكت ؟

- هل قاومته بالضحك ؟.

طرحا سؤاليهما في استغراب .. أجاب الكهل :

- نعم ... الضحك عليه وعلى كل قرار يتخذه .. كانت آذانه المبثوثة في كل مكان تنقل إليه كل ما تتهامس به القطط في خلواتها .. كان ذلك موجعاً له .

- موجعا ؟

- نعم .. يقال أن البؤس منجم غني بالفكاهة والمرح .. يكفي أن تكون بائسا يائسا مقهوراً لتتلبسك روح الفكاهة .. تغرف منه ما يكفي لإضحاك ام ثكلى .. إنها طريقة للمقاومة .. يحلو للبعض ان يصفها بأقسى أنواع المقاومة السلبية .. بينما يصفها آخرين بأنها وسيلة عقيمة للمقاومة .. لكن القطط كانت على ما يبدو مع الرأي الأول .. سمعت قولاً تتبادله بعض الأمم يقول : "حتى الهم يضحك" .. لم تكن القطط مهمومة فحسب بل غارقة في محيط

عميق لا ساحل له من الهموم .. عبرت عن واقعها بالضحك من نفسها صراحة ومن زعيمها تلميحاً .. كانت تنفس عن نفسها .. كانت تقاوم دون ان تقصد .

يحلو للبعض ان يجعل من النكت وسيلة ومقياساً لتصنف الأمم .. فكلما كانت نكات أمة ما قاسية وموجعة كان ذلك دليلاً صارخاً على ما تعانيه من شقاء لا العكس .

- غريب .. لم اسمع بهذا الكلام من قبل .

- لكننا سمعنا وعشنا ما يجعلنا نصدق مثل هذا الكلام .

قال الشاب :

- سمعنا أن هناك من يبكي من شدة الفرح .. لكني لم اسمع بمن يتفنن في الضحك من هول ما يعانيه من بؤس وشقاء .. يا لتعاسة القطط .

أضاف الكهل :

- كان وقع النكات أحد وأشد من ضربات المخالب .. كانت ردود أفعاله دليلاً على تأثير النكتة عليه ..

- إلى هذا الحد ؟ .. لم أكن أحسب أن للنكتة كل هذا التأثير على الطغاة .

- ذات مرة أصدر قراراً من قراراته الغبية لم أعد أذكره لكثرتها .. أحد القطط تندر قائلاً : لترى الواقع كاملا عليك ان تفتح عينيك الاثنين جيداً .

- هل هذه نكتة ؟

سألت القطة الشابة .. أجابها الكهل :

- كانت تلك اشارة خفية لعور الزعيم .. فهو لا يرى واقع القطط بعينه الواحدة لهذا يسومها كل هذا العسف .

- يا له من تشبيه .. ماذا صنع الزعيم ؟

- في الحقيقة .. لم يصنع شيئاً في البداية .. فهو لم يكن ليفهم مثل هذا التلميح البليغ .. لكن القطط عمدت ربما قصدا او دون قصد منها إلى التصريح .

سأل القط الشاب في حماسة :

- كيف ذلك .. صار الامر ممتعا .. صراع النكت هذا راق لي .

- لجأت القطط لحيلة

- حيلة ؟

- نعم .. صارت تغمض عينا وتترك الأخرى .

- لم افهم غايتها من ذلك .

- كانت توميء من طرف خفي لعور الزعيم .. أغمضت عينها لترى الوطن بنفس الطريقة التي يراه بها الزعيم .

- بعين واحدة .
- يا لها من حيلة .
- هنا تفطن الزعيم للأمر .. بعد أن وصلته الفكرة عن طريق مستشاريه .. قبض على القط المسكين وسيم سوء العذاب .. سمل له الزعيم عينيه الاثنين وتركه بعدها .. لحق الأذى آخرين كذلك .

انحدرت دمعة من القطة الشابة قائلة :

- يا للقط المسكين ..

أضاف رفيقها الشاب :

- يا لهول ما عانيتم .

توقف الكهل عن سرد السيرة المؤلمة .. شعر القطان أن الوقت قد مر سريعًا وأن أوان عودتهما قد حان ..

غادر بعد أن وعدا الكهل بالعودة في الغد لإكمال سيرة وطن بائس .

تابعهما الكهل حتى غابا عن ناظريه .. تنهد في حسرة وألم .

❖❖❖

التأم شمل ثلاثتهم في اليوم التالي .. كان الشغف واضحا على محيا الشابين لمعرفة ما جرى لوطن سمعوا عنه وتمنوا لو عاشوا فيها .. ربما لتغيرت أمور كثيرة .. استأنف الكهل رواية السيرة :

- لم تكن النكتة سلاح القطط الوحيد .. لكنه كان الوحيد الذي تحسن استعماله بعد أن جردها من مخالبها .. كما أنه الأسهل والمتاح لكل القطط استعماله .

قال القط الفتيّ في غضب :

- السكوت عن الظلم أشد من الظلم نفسه ..

تساءلت القطة الشابة :

- كيف صنعت – القطط - لمواجهته ؟

حرك الكهل ذيله ليطرد ذبابة وهمية .. قال :

- وصل ذات يوم بعد أن اشيد الأمر على القطط .. كان كهلاً طاعنا في السن .. عرك الحياة وعركته .. فقد ذيله في صراع مرير بعد أن وقع في فخ نصبه له بعض الصبيان الاشقياء .. يقال انه نجى بأعجوبة يحسد عليها ..

قال الفتى غاضبا ملوحا بقبضته :

- الاشقياء .. لا اجد سببا لهذه العداوة بيننا وبينهم .. لا يطيقوننا ويجدون متعة كبيرة في العبث بنا والإساءة إلينا .

واصل الكهل قائلاً :

- ليس هذا فحسب .. خسر كذلك عينا في صراع آخر ضد كلاب متشردة حاولت قتله ..

قالت القطة الشابة في أسى :

- يا له من محظوظ ... الكلاب والصبيان أشد أعداء القطط .

قال الكهل :

- يقال أنه فقد ستة أرواح كاملة في صراعه من أجل البقاء .. إنه مثال نادر لبطولة القطط .. وصل ذات يوم رفقة حفيدين من أحفاده يقودانه بعد أن بات صعب عليه الحركة بمفرده .. تسللوا عبر تلك الوحوش البرتقالية التي تزور الوطن يوميا .. أحسنت القطط استقباله .. بل أكرمت وفادته إكراماً لتاريخه الحافل في النضال .

قال الفتى :

- أحسنت – القطط - صنعاً .

تساءلت القطة الشابة في خوف :

- ماذا عن الزعيم ؟ .

عاد الكهل ليسرد قصة المناضل العجوز .

- لم يكن المناضل مغامراً فحسب .. بل كان حكيماً أيضا ..

قالت القطة :

- لا شك أنه اكتسب حكمته هذه من طول صرعه ونضاله .. لا تمنحك الحياة هذه الحكمة دون مقابل .. فقد دفع ستة أرواح ثمنا لها .

واصل الكهل :

- قال إنه وصلته أنباء مؤسفة لما يحدث للقطط في هذا الوطن .. نصحه كثير من رفاق نضاله بعدم المغامرة والقدوم لهذا الوطن خشية على روحه الأخيرة لأن يزهقها الزعيم .
- صدق من نصحه .. فزعيمكم متهور أرعن لن يقدر بطولته وتاريخه الحافل .
- قال أنه جاء من أجل لقاء الزعيم .
- يا له من مغامر!
- قال أن روحه المتبقية تهون في سبيل إنقاذ القطط من بؤسها .. أضاف أنه سيكون سعيداً لو فقدها من أجل غاية سامية مثل إنقاذ القطط ..

قال القط الفتي في حماسة :

- هكذا يكون النضال .
- لهذا السبب قدرته القطط كلها ورفعت من قدره ومكانته كما يليق بأمثاله .

تساءلت القطة الشابة :

- كيف سينقذ القطط ؟

قال الكهل :

- قرر أن يكون وسيطاً بينها وبين زعيمها .

قال الفتى في غضب :

- لا ينفع مع الأرعن سوى القوة .

عارضته القطة الشابة :

- لا تنسى يا عزيزي أن القطط فقدت مخالبها .. كما انها فكرة نبيلة .. قد تجنب القطط الكثير من المأسي ..

أكمل الكهل سرده :

- قال المناضل العجوز إنه آسف لما آلت إليها حال القطط في هذا الوطن الغني بخيراته وأنه يضع روحه الاخير فداء للقطط من أجل أن تعيش حياة هنية .. فذهب إلى الزعيم .

- لابد أن المواجهة كانت قوية !

سألت القطة الشابة بحماسة .. رد الكهل :

- نعم .. كانت قوية ..

علق الشاب قائلا :

- كلاهما بعين واحدة .. لكن شتان بينهما .. أحدهما مناضل بينما الآخر أرعن متسلط .

- لم يحسن الزعيم استقباله .. كان يتقصد الحط من قدره وإذلاله أمام باقي القطط .. لكن المناضل كتم غيضه من أجل غاية أهم .. طال اللقاء ليوم كامل .. لكن دون جدوى .. فشل المناضل في إقناع الأرعن بالتخفيف عن القطط .. بل قال أنه سب القطط

وشتمها ووصفها بأشنع الأوصاف مؤكداً أنها الطريقة الوحدة لحكمها ..

- ماذا حدث بعدها ؟

- غادره المناضل بعد أن قال كلمته التي تناقلتها القطط .. بل صارت شعاراً لها فيما بعد .

- ماذا قال له ؟

- قال له .. استهزائك بالقطط واحتقارك لها ستكون سبباً في سقوط زعامتك .. انظر حولك .. انظر كيف يعامل زعماء الأمم المجاورة لنا في الوطن رعاياهم .. اضاف كلمته المشهودة :

"اتقى صولة القط إذا غضب" .

- يا له من شجاع .. كيف تعامل الأرعن مع هذه النصيحة ؟

- ضحك كثيراً حتى قيل أنه استلقى على ظهره من الضحك .. بل أن حاشيته كلها ضحكت لنهار كامل عندما سمعت بتهديد المناضل بعدها قال له : أنصحك أن تعود من حيث جئت فهذه القطط لا يهمها سوى أن تأكل ولا تعنيها الطريقة التي تأكل بها .

قال القط الفتىّ بغضب :

- يا له من مستهتر .. سبق وقلت أن القوة هي اللغة الوحيدة التي تصلح مع أمثاله .

تساءلت القطة الشابة :

- ماذا حل بالمناضل بعد ذلك ؟

زفر القط في حرقة .. عاد لتحريك ذيله يمنة ويسرة قال بعدها :

- لا شيء فقط كانت القطط تجتمع كل مساء عنده .. يروي لها مغامراته الكثيرة وكيف فقد اراوحه تباعاً .. كان حديثه مشوقا ومثيرا لحماسة شباب القطط .

❖❖❖

-كنت من بين من يرتاد مجلس القط العجوز .. بل كنت معجباً بحكاياته إلى حد بعيد .. كنت أبحث بين ثنايها عن أهدافه .. كان يحاول ان يزرع في القطط بذرته ..

سألت القطة الشابة :

- أية بذرة ؟
- البذرة التي ستثمر يوما ما مستقبلا غير الذي تعيشه القطط .

اندفع الشاب قائلا :

- الحرية .. أليس كذلك ؟
- نعم .. هي وحدها ما سيغير من حياة القطط إلى الأفضل .

- كثرت لقاءاتنا عند العجوز المناضل .. لم نكن وحدنا من يرتاد مجلسه .. بل كثير من القطط من مختلف المشارب .. منها الرمادية والسوداء القاتمة وكذلك القطط الملونة وتلك البنية الزاهية .. لم يجمعهم حلاوة ما يقوله المناضل فقط .. بل صار للوطن طعم مختلف .

قالت القطة في حماسة :

- يبدو أن القطط أحسنت اختيار الطريق .

- نعم إلى حد ما .. كان صديقي القط المرقط من المتحمسين لكلام العجوز ومن المدمنين على حضور جلساته .. اكتشف ذات يوم أنه يحسن قرظ الشعر .. كان في البداية يتناول أغراضاً تافهة للتسلية والضحك .. لكن بعد أن صار جليساً دائماً للعجوز تغير جملة وتفصيلاً .. صار شعره تحريضياً .

تدخل الفتى بعد ان خفتت حدته :

- جميل .. هذه وسيلة مهمة للنضال لو أحسنت القطط استثمارها .
- انشد قصيدته الشهير التي رصد من خلالها معاناة القطط ؟
- اسمعنا شيئا منها يا عماه .
- اختار له "مواء " اسماً وعنواناً
- مواء ! .. اسم جميل ومعبر .

صمت الكهل .. كان يبحث في ذاكرته عن القصيدة التي كانت حديث كل القطط .. بعدها شرع ينشد :

مواء مواء خواء خواء

في صمتك خواء يقود للفناء

عليك بالمواء لتحي في هناء

❖❖❖

القط في صفاه يوحي بالخنوع

وأما في جفاه يدمر الجموع

عليك بالجفاء لتضمن البقاء

مواء مواء خواء خواء

❖❖❖

القط في خضوع يعيش في خفاء

ستبقى في ركوع تكتم المواء

مواء مواء بقاء بقاء

❖❖❖

أوقد الشموع وارنو للسماء

تقدم الجموع لتقهر الشقاء

مواء مواء مواء مواء

❖❖❖

صاحت القطة الشابة في حماسة :

- رائع .. كم هو قوي ومؤثر هذا الشعر .

اضاف الكهل :

- نعم .. أعجب الكهل بالأبيات الحماسية .. تناقلته القطط سراً في باديء الأمر .. ثم غناه أحدهم ذات يوم فراق للقطط أكثر .. فصار النشيد على كل لسان .. حتى وصل إلى مسامع الزعيم .. في البداية لم يأبه لذلك .. لكن احد شياطينه نبهه لخضورة السكوت على مثل هذه الاناشيد فعليه القضاء عليها قبل استفحال امرها .

قال الشاب في غضب :

- بطانة السوء هي سبب كل بلاء .

- صدقت يا بني .. قبض عليه اعوان الزعيم .. ساموه سوء العذاب .. بعدها اطلقوا سراحه .

- غريب ان يطلق سراحه يبدو انه ندم على تعذيبه .

- كلا بل اطلق سراحه بعد ان نزع لسانه .. حتى يكون عبرة لأي قط يحاول أن يموء شعراً

- يا لتعاسة القطط .

- لكن القطط لم تتوقف عن المواء بالنشيد .. صحيح انها تموء به سرا لكن ذلك كان كافيا في ذلك الوقت العصيب .

حل الصمت بين الثلاثة .. عادت الذبابة تستطلع المكان .. طافت حولهم عدة مرات .. غادر بعدها إلى مكان ما .

❖❖❖

-في هذه المجالس تعرفتُ على قطتي .. جمعنا نفس الهم .. تطلعنا لنفس الغاية .. كان والدها من ضحايا الزعيم أيضا .. من أول نظرة ارتبطنا ..

توقف الكهل عن سرده التاريخي .. حرك ذيله من جديد .. جاءت الذبابة لتستفزهم بطنينها .. لم يأبه لها أحد هذه المرة .. غادرتهم بعد أن فشلت في مسعاها .. قال الشاب في مرح :

- لابد أنك فتنتها وسحرتها وخلبت لبها .. هه هههه هه

ابتسم الكهل لأول مرة مذ بدأ سرد السيرة المؤلمة .. قال :

- قالت أمي باسمة حين أخبرتها عن قطتي .. إن قصتنا نسخة مطابقة عن قصتها .. أردفت بعد نوبة بكاء طارئة أنها لا ترجو أن تكون نهايتها كنهاية قصتها ..

- نقلت عيون متلصصة للزعيم عن قصة غرام تتكون في مكان ما من أرض الوطن.

كان عليه أن يضرب ضربته الأخيرة .

تفتق ذهنه على مؤامرة .. رأى فيها فرصته الأخيرة للنيل من أمي .. وضعها بين خيارين ..

إما أن تخضع له ..

أو يضربها في أعز ما بقي لها ..

نسجت أيادي الجلاد تهمة قذرة .. حاكت تفاصيلها بدقة ..

حذرني قط مجهول ذات ليلة مظلمة .. اقترح عليّ الفرار .. لجأت إلى مكمن آمن .

ترصدتني عيونه .. بحثت عني طويلا .. فشلت في إحكام قبضتها الغاشمة عليّ .. أرسلت لي قطتي تطلب مني الفرار بعيدا عن الوطن إلى حين .. فالزعيم لن يهنأ له بال وأنا بين ظهرانيه .

حكمت محكمته الظالمة بنفيي عن الوطن .. كان السجن أحب إلي من النفي .. أن أسجن في وطني كان أحب إلي من طردي منه .. للوطن رائحة لا يشم عبيرها إلا من أحس به ..

توقف عن سرده .. تنهد الكهل متألما .. دخلت الذبابة من جديد لتحوم في فضاء البرميل .. طاردها الشابان بقبضتين ملأهما الإصرار .. تفلتت من بينهم .. لاذت بالفرار من جديد .. سألته الشابة بعد أن استعاد البرميل هدوء من فيه :

- ماذا كان قرارك ؟
- غادرت الوطن نزولا عند رغبة الأم وإلحاح الحبيبة .

لم ابتعد كثيرا .. كمنتُ بجوار أسوار الوطن .. أتشمم أجواءه .. أستمتع بسماع مواء ساكنيه .. تصلني نتف من أخبارهم .. لم يدم الأمر طويلا .. فقد حل ما كنت أخشاه .

❖❖❖

على الرغم من شراستها وقوة شخصيتها .. غير أنها رضخت .. ربما كان خيارها الوحيد .. كان بين طيات قرارها إنقاذا لي .. هكذا بدا لها الأمر وهكذا حسبته فحسمته .. تزوجت من قط يحمل نفس همومنا .. هذا كان عزائي الوحيد .. اكتفى الزعيم بهذا النصر .. توقف الزعيم عن البحث عني بعد أن كسر قلبي ..

سألته القطة الشابة بحزن :

- هل غفرت لها ذلك ؟

كان خيارا صعبا منها .. لكنه كان مخرجها الوحيد لإنقاذ نفسها من بطش الزعيم وإنقاذي من مطاردته ..

اعتبر الزعيم ذلك نصراً له على والدتي التي صدته كل تلك الأعوام .

- هل عدت لحضن الوطن بعد ذلك ؟

- كلا .. فقدت الأم أيضا بعد زوجها بأيام .. لم يتحمل قلبها أن تتكرر مأساتها مع ابنها الوحيد .. فغادرت روحها الوطن وحظيت بقبر صغير على أرضه .

خرج الكهل من البرميل .. مشى في الخلاء خطوات .. تبعه الشابان .. وقف بعد قليل على مكان قبر والديه .. فضحته دمعة تسللت على خده لم يفلح في إيقافها .

بحث عن ذات

لم أعد أطيق البقاء قرب وطنٍ استحوذ جوفه على الأم .. وسيطر قطٌ أرعن أخرق أعور على ساكنيه ..

اتخذتُ قراري .. كان الحل في الهجران .. قررتُ الابتعاد ..

تلك الوحوش البرتقالية كانت وسيلتي لمغادرة المكان .. أوحت لي بوسيلة الفراق في رحلتها اليوم من وإلى الوطن .. تسللتُ إلى جوف إحداها ذات يوم بعد أن أخذ مني اليأس مأخذا عظيما ..

اتخذها بنو قومي وسيلة للفرار من الزعيم .. منهم من وصل لبر النجاة ومنهم من فقدنا أثره وخبره .. لا نعلم هل لفظته تلك الوحوش أم ابتلعته أم أوصلته إلى ضفة النجاة ؟ .

استعنت بحذر القطط .. على الرغم مما يشاع عنا في أمم جاورناها منذ القدم أننا نملك سبعة أرواح .. قررت ألاّ أفرط بأي منها بسهولة ..

ما إن شعرت بهدوء الوحش من تقافزه طيلة الطريق وانسيابه حتى أدركتُ بحسي القططي المرهف أني قد اجتزت الفراغ الفاصل بين الوطن وبين المدينة ..

قفزتُ عند أول سانحة .. استطعت المحافظة على تلك الأرواح السبعة المزعومة إلى أن وصلت لشط النجاة ..

شعرت بالتيه في مكان أجهل تفاصيله وما يمكن أن أواجهه فيه من صعاب .. لكنها كانت خطوة هامة وقطعتها بنجاح ..

جلست في مكمني أفكر في خطوتي القادمة .

القط الذي لا يحسن التدبير يلتهمه الضياع .. يبتلعه التيه .. الويل لمن تاه في بحر التيه .. قد يفقد أرواحه السبعة روح إثر روح وهذا اهون ما قد يتعرض له قط .. أما فقدان هويته فهو الأخطر .. أن تعيش وتتنفس وتأكل كأي كأئن آخر لا فرق بينكما سوى فروة القط التي على ظهرك فهذا هو التيه .. إنه أعظم تيه وأسوأ ضياع .

❖❖❖

أصبح البرميل لا يطاق .. سلطت شمس المكان غيظها وقيظها عليه .. خرجوا منه قبل أن يصبح فرنا متقدا ..

غادروه بحثا عن مكان أكثر برودة .. ساروا مسرعين نحو ظل الجدار المتهالك .. اتخذ الشابان موقع الاستماع .. أخذ بدوره منهم موضع الراوي :

" مر نهاري الأول بعيدا عن وطني بطيئا .. لم أكوّن فكرة عما يمكن القيام به .. كان ذهني خاليا .. وقلبي لا يزال معلقا هنا ..

قرصني الجوع .. خرجت لأسكت غضبته .. كنت أتحرك بحذر .. لا أثر للقطط .. بدأ يتسرب إلي الخوف من القادم .. وجد الإحباط طريقه إلي أيضا ..

لم أتخيل أن أعيش في مكان لا قطط فيه .

هبط المساء .. اقترب الليل ويكاد يغطي بعتمته على كل شيء .. اتخذتُ قراري بالمغامرة .. لم يكن أمامي غير هذا الخيار .. كانت غايتي في ذلك الوقت لقمة أقاوم بها جوعي .. بحثتُ طويلا .. تشممتُ كثيرا .. تحسستُ الأشياء كلها .. كاد يصرعني الجوع دون فائدة .

راقبت الناس وحركتهم .. لا أحد يبالي بقط مشرد جائع ..

كانت تصل إلى أنفي بعض روائح لا أجهل كنهها غير أني لا أعرف مصدرها ولا مخبأها ..

أسدل الليل كامل ستره على المدينة .. إنه الوقت المثالي لتحرك القطط .. تحركت بحرية أكبر .

اكتشفت مصدر الرائحة .. كانت بجواري طوال الوقت .. تصدر من أوعية كبيرة أمام كل بيت .. لكنها كانت محكمة الغلق ..

مر النهار قاسياً والليل محبطاً .. لم يكن الجوع فقط سبب إحباطي .. إنه اليوم الأول في حياتي لا أسمع فيه حسا لقط .

لولا جذوة أمل وبقايا إصرار لعدت أدراجي ..

أن تكون سجيناً في وطن يعترف بك أفضل بكثير من حرية في وطن يتجاهلك لو كنت حراً طليقاً

❖❖❖

تأخر طلوع شمس يومي الثاني .. ساءت حالتي كثيرا .. استعنت على جوعي بخشاش الأرض .. خشيت كثيرا على أرواحي السبعة أن تذهب هباءً منثورا ..

كان عليّ طيلة يوما كامل من مشرق شمسه إلى أفولها أن أمعن التفكير في أمرين وقعت فيهما .. غربتي وكربتي .. بان لي صدق المثال السائر القائل : " القط الجائع لا طائل من ورائه " .. في ذلك اليوم راجعت قائمة الأمثال التي تنطبق على حالتي .. أولها هذا المثل : "بطن خاوية تؤدي بك للهاوية " .. أما المثل الذي يلح علي كثيراً فهو : عقلك بحاجة لقُوتك وقوتك بحاجة لعقلك ..

فوجئتُ من كثرتها وصدقها وانطباقها عليّ انطباق المخلب بالمخلب وتشابهها مع حالتي تشابه القط بالقط .. كان استذكارها ومراجعتها تسليتي وخياري الوحيد إلى أن حل المساء .

في ذلك الوقت اختمر في ذهني قرار المغامرة .. فضياع روح من سبعة أرواح خير من ضياع قط بأرواحه كاملة دون تضحية .. إنها لعمري خسارة فادحة في كل الاعراف وليس في عرف القطط فحسب.

تحينت فرصة السكون لبدء مغامرتي ..

غادرت المكمن الآمن .. تحركت بكل ما تعلمته وورثته عن أسلافي عن الحذر والحيطة وعدم التفريط في الأنفس الغالية .. قفزت إلى أقرب ساتر .. تسلقته .. سرت على أطرافي .. كانت عيناي المرهقتان تبحثان مرة عن مكان آمن لخطواتي وعن ما يسد الجوع ويقوي العزم ..

خرجت من عزلتي إلى عالم الغربة خالي اليدين من أي تجربة .. لا أحمل عن هذا العالم إلا كل سوء وتوجس .

سرتُ بحذر بالغ بحثاً عن شيء لا اعرفه ولا اعلم اين اجده ولا كيف اجده ولا متى أجده .. كنت تائهاً حائراً خائفاً .

في غمرة ذلك رماني أحدهم بشيء ثقيل .. صرخت في فزع .. قفزتُ بحثاً عن مكمن يحميني من المهاجم .. على حياة أجهل كنهها وشكلها ومصيرها .

كان حذاءً ثقيلاً قاسياً عنيفاً .. وقعت في حوض أزهار البيت الذي حاولت التسلل إليه في هربي .. غمرني الوحل .. زادت حالتي سوءً ومعنوياتي هبوطاً ونفسيتي إحباطاً .. فررتُ لا ألوي على شيء .. جريت كثيراً .. قفزت جدراناً عديدة .. أخيراً أخذ مني التعب كل مأخذ .. فقررتُ أن أختبئ في أي مكان .. خصوصاً بعد أن اكتشفت عجزي عن العودة لمكمني السابق ..

من مكمني الجديد وصلت إلى أنفي رائحة مميزة .. أشعرتني أن الفرج قريب ..

ابتسمت لأول مرة منذ غادرت الوطن .

❖❖❖

كانت رائحة قطة تفوح في المكان ..

سررتُ كثيرا لهذا الاكتشاف .. شعرتُ أنها القشة التي عليّ التشبث بها للخروج من بحر الإحباط .. ها هي أخيراً أمواجه المتلاطمة تركن للهدوء والسكينة .. أرجو أن لا يكون الهدوء الذي

يسبق العواصف .. على أن لا أكون قطاً متشائماً .. التفاؤل هو خياري الوحيد المتاح .

ملأتُ تلك الرائحة كل كياني .. بالكاد استطعتُ السيطرة على أرواحي السبعة المنهكة .

حاولت أن أتبين مصدرها .. فصعب علي ذلك لما أعانيه من جوع وخوف وقلق .

لم يطل الأمر كثيراً ..كانت قد اشتمت رائحتي في المكان أيضاً .. ملأها الفضول .. تلصصت من نافذة في أعلى البيت .. كانت آية آية في كل شيء .. لم أرَ قطة في حياتي مثلها .. لم أرى عيننين في اتساع عينيها ولا خفة في تحريك ذيلها مثل ما تفعل .. كما أني لم أشم رائحة أزكى من هذه الرائحة التي تنبعث منها .. كما أن لفروتها البيضاء الناصعة جمالاً لم ارى نظيراً لها .. كل هذا امكنني رؤيته وتحسسه من مكاني المعتم .. فالضوء المنبعث من النافذة زاد من سحرها وفتنتها .

فقدتُ توازني .. ترنحت .. فقدت السيطرة على ارواحي السبعة دفعة واحدة .. لمحتني رغم شدة العتمة .. أشارت لي تحذرني .

بعد أن سكن المكان .. قفزت من نافذتها إلى الحديقة .. كانت رشيقة أيضا .

وقفت أمامي .. لُجم لساني كأنه عُقد بألف عقدة .. لا أعلم هل الجوع ما أخرسني أم الخوف أم جمالها ؟ .. لابد أنه جمالها الطاغي ورائحتها المسكرة .

هيئتي كانت تغني عن السؤال والجواب .. قفزت من جديد من حيث أتت .. خشيت أن تكون نهاية مغامرتي قد حلت .. تأكدتُ من أرواحي السبعة .. وجدتها على حالها سليمة معافاة لكنها لم تعد كما كانت قبل دقائق .. حمدت الله على هذه النعمة .

عادت بقفزة أخرى بعد لحظات أكثر رشاقة وحماسة .. هذه المرة كانت تحمل معها أشياء تفوح برائحة لذيذة أنعشت لي ستة من أرواحي .. ابتسامتها المشرقة أثارت أيضاً في أحد أرواحي السبعة شيئاً غير الجوع .. إنه أشبه بالجوع .. لكنه ليس جوعاً تسده لقم الطعام .. بل جوع للحنان والعطف وربما الحب .

التهمتُ الزاد القليل بشراهة .. أثناء تناولي للذيذ طعامها القليل تكفلت بأن مسحت عن جسدي المنهك الوحل .. شعرت بأحمالي تُزاح وأثقالي تذوب عن كاهلي دفعة واحدة .

أشرقت شمس الأمل لتذيب جليد الاحباط الذي سد أفقي قبل قليل .. تنفست الصعداء ..

قبل أن تغادرني طلبت مني أن أكون على حذر وألاّ أتحرك من مخبئي إلى الليلة القادمة .. قفزت برشاقة تحسد عليها .. أشارت لي بقبضتها الناعمة من نافذتها مودعة .

تذكرت أمي فبكيت تلك الليلة كثيراً قبل أن أخلد للنوم .. تذكرت صديقي الشاعر وقصيدته الشهيرة مواء .. رددت أبياتا منها قبل أن يستولي علي النوم بين أحضانه :

مواء موا مواء مواء ما ينقص قطتنا سوى المواء

لتلقى عيشاً هنياً فليس من سبيل سوى بالمواء

في بيتنا قط

كان عليّ انتظار قدوم الليل بستائره السوداء وسكونه الآمن .. إنه أفضل وقت تستمتع فيه القطط .. تجمع فيه بين النقائض السكون والحركة .. النوم واليقظة .. الحذر والمغامرة .

مر النهار طويلاً كئيباً وأنا محاصر في مخبئي .. تأخذني الظنون كل مأخذ .. أفكر في مصيري ومستقبلي ..

ذهبتُ بخيالي هناك إلى الوطن .. ذلك السجن الكبير .. المليء بالقطط الراغبة في الانعتاق والتحرر .. المتواكلة والمتكاسلة عن فعل أي شيء من أجل تحقيق هذه الرغبة .

لم تغب قطتي البعيدة عن خيالي طيلة الوقت .. دعوت لها كثيراً بالتوفيق في حياتها الجديدة .. لم أستطع إبعاد صورتها عن مخيلتي رغم محاولاتي الكثيرة .

أخيراً جاء الليل يجر معه العتمة جراً .. ويدفع أمامه السكون والأمان دفعاً .. طبع على المكان هدوءً مريبًا ..

سمعتُ موائها اللذيذ .. أطللتُ من مخبئي.. أشارت لي أن أظل حيث أنا .. قفزت برشاقة وغنج .. فروتها البيضاء الناعمة زادتها حسناً وجمالاً ودلالاً .

وقفت أمامي ..

تفحصتني بعينيها الجميلتين .. طلبت مني بدلال أن ألحقها بحذر .. قفزت عائدة إلى النافذة المشرعة .. لم أكن برشاقتها .. خصوصاً أني لم أتعاف بعد من آثار جوعي وتعبي وهزالي .

وصلت حيث وجدتها واقفة .. ابتسمت لي مشجعة .. وقفت مبهوراً وأنا أتفحص المكان .. اتساعه مربك لمن عانى مثلي سجن الغربة .. نظافته محرجة لمن عاش هناك في الوطن .. رائحته الزكية مخجلة لمن تعود عكسها .. وجدت نفسي أقف على شفا النقيض .

ضحكت من انبهاري .. دعتني للجلوس .. أكلت من أطايب الطعام الكثير الذي جهزته لي .. أنهينا وصلة الأكل بشرب أنخابٍ من حليبٍ لم أتذوق لحلاوته طعماً من قبل .. سكرتُ من السعادة والريبة .

أخيراً استعدتُ كثيراً من تركيزي بعد وجبة مشبعة وصحبة محببة .

تحادثنا طويلاً .. سردتُ لها حكاية الوطن وأهله .. تفاعلت معي كثيراً .. سالت دموعها تعاطفاً .. تأوهت في مواضع كثيرة من قصتي .. ابتسمت مشجعة .

فجأة حدث ما لم نكن نتوقعه .

سألت القطة الشابة في لهفة :

- ماذا جرى ؟
- فجأة فتح الباب .. كانت تلك سيدة الدار ..
- سيدة الدار ؟
- نعم .. لم تكن لتسمح باستقبالها لي في دارها .. خاصة أني....

غص الكهل في العبارة القاسية .. لم يتمكن من إكمالها إلا بعد أن زفر بحرقة :

- لأني قط متشرد ..
- قط متشرد ؟

تساءل القط الفتيّ في استغراب :

- نعم يا بني .. قط مطرود من وطنه مشرد بائس .. بينما هي لم تكن كذلك .. كانت تعيش في رفاهية اسرة عريقة تهتم لشأنها .
- يا للبؤس .
- حين تكون منبوذا في وطنك .. لن تتحملك أوطان الآخرين

سألت القطة في أسى :

- ما الذي حدث بعدها ؟
- أسرعت هارباً .. كمنت في الحديقة قليلاً .. سمعت بكاء منقذتي وتألمها وتقريع سيدة الدار لها على سوء صنيعها .. تألمت

كثيراً لما سمعته من اوصاف الصقتها بي .. بكيت لأول مرة مذ غادرت الوطن .. بكيت لما آل إليه حالي من ضياع .. لم يدم ذلك طويلاً .. خرج من الدار من يبحث في ارجاء الحديقة ليطردني بعيدا وربما ليقضي عليّ .

- يا للهول !

صرخت القطة الشابة .. أضاف الكهل :

- لكني أفلحت في الهرب ..

سأل الفتي في غضب ملوحاً بقبضته :

- ماذا حدث بعدها ؟

- مرت أيام دون أن اتمكن من لقائها .. حاصرها اهل الدار .. عشت ايام مريرة في صراع من أجل البقاء .. صارت عزيمتي أمضى وإرادتي اقوى .. قررت أن لا اتخلى عن منقذتي .. كانت نافذتها مغلقة طوال أيام .. تمكنت بعدها من رؤيتها .. لم تكن في نافذتها المعتادة .. ولا في حديقة دارها .. بل في مكان آخر .

- مكان آخر ؟ .. أين كان هذا المكان ؟

- لم أكن أعلم في باديء الأمر .. لكنها حدثتني لاحقا بذلك .. كانت تلك عيادة .

- عيادة ؟

- نعم .. لقد مرضت طيلة تلك الأيام حتى اضطر اهل دارها لزيارة الطبيب .. هناك كان اللقاء .

تحمست القطة الشابة فقالت :

- ماذا حدث في هذا اللقاء ؟

- كان للحظ أن يلعب دورا لصالحي للمرة الثانية مذ غادرت الوطن .. كنت اكمن في حديقة ذلك المكان .. لاحظت عدد كبير من القطط والكلاب ترتاده .. لم اكن أعلم أنه مصحة مختصة .. في ذلك اليوم حمل لي النسيم رائحة عزيزة عليّ .. لم اصدق حاسة شمي في باديء الأمر لكني قررت ان اتأكد .. هناك فقط تأكدت من صدقها .. كانت هي .. منقذتي .. كانت في حالة سيئة .. لكنها شمت رائحتي كذلك فهبت من مرقدها وقفزة تجري تبحث عني .. عادت إليها ارواحها السبعة بعد أن كادت تنفق منها حزنا لما جرى لنا .

توقف الكهل عن سرد السيرة .. انهكته الذكرى .. لكن نظرات الألحاح والفضول من القطين جعلته يواصل :

- اطمئنت على حالي وما آل إليه أمري .. تلك الليلة عدت لزيارتها .. كانت نافذتها مضيئة .. عاد الأمل والرغبة في مقاومة الغربة والمنفى تسري في عروقي من جديد .. صار للحياة طعم مختلف .. حياة بلا أمل لا يمكن أن تعاش .. تسللت إلى حجرتها ..

قضينا الليلة معاً .. قبل انبلاج ضوء النهار تسللتُ هارباً إلى مخبئي في حديقة دارها في انتظار قدوم ليل آخر .

❖❖❖

نمت طويلا كقط خالٍ من هموم .. صحوت كقط مذعور .. لا مفر لأي قط من إحدى هاتين الحالتين مهما كان وضعه ومستواه .. حلمت لأول مرة خارج أرض الوطن .. انتهى حلمي الطويل بهزة كف حانية .. فتحت عيني في ذعر .. كانت كف القطة المنقذة .. لكنها ليست لوحدها هذه المرة .. كان بصحبتها هران .. حاولت استيعاب الموقف الجديد .. تأسفت لوجود أغراب بيننا .

كان الهران على النقيض في كل شيء .. أما أحدهما فكان لطيف المظهر عكس رفيقه الذي تبدو عليه ملامح الحدة ..

رحب بي بجفاء عكس رفيقه الذي فرح بي كثيرا .. وداعبني كقط خفيف الظل ..

لم يطل التعارف طويلاً .. طلبت قطتي الأليفة مني أن أصحب الهرين .. تركتنا لتعود لنافذتها .. تأسفت لمغادرتها وتركي في حيرة .. ما كان مني إلا أن أصحبهما وأسلم أمري لهما .

منذ ذلك اليوم تغيرت حياتي تغيراً كاملاً .

يحتاج القط إلى أمل

كما يحتاج إلى الهواء

كما يحتاج إلى غذاء

لين صفو ذاك بلا مواء

مواء مواء مواء

قط عصري

بقفزات رشيقة انطلقتُ خلف الهرين .. قاداني إلى حيث لا أدري .. كانا على علم بتفاصيل حكايتي .. تحدثنا أثناء جولتنا في أرجاء المدينة .. طافا بي معالمها .. لم تغب عن ذهني صورة الوطن .. ظل ذهني يقارن بين ما أراه الآن وما كنت أعيشه في أرض الوطن .. كانت المقارنة ظالمة بكل المقاييس ..

رأيت وجها جديدا وعالما فريدا .. اكتشفت أن للقطط حياة أخرى يمكن أن تعيشها بعيدا عن أكوام القمامة .. بل في أرقى المدن العصرية وبطريقة حضارية ومتقدمة ..

تحسرت على أبناء جلدتي هناك وهم يعيشون على تلك الأكوام من القذارة في حين قطط هذا المكان تعيش حياة أقل ما يمكن وصفها به أنها نظيفة .. لم أخفِ عليهما حسرتي وأسفي على وطني وعلى بني وطني .. طالت جولتنا فنال مني التعب .. تعب الرحلة وتعب المقارنة .

عدنا إلى الحي الذي انطلقنا منه .. لم تكن بانتظارنا .. رغم أن نافذتها كانت مفتوحة ومصابيح البيت لا تزال مضاءة .. قاداني إلى مكان آخر قريب من بيت قطتي اللطيفة .

جلسنا وتناولنا بعض الطعام الشهي .. أعلمني الهر اللطيف إني سأعيش معهما هنا إلى أن أتدبر أمري .. حمدت لهما صنيعهما كثيرا.

سألني اللطيف عن انطباعي عما شاهدتُ في رحلتنا ..

أخبرتهما عن حلمي أن أرى قطط وطني تعيش في مثل هذا النعيم !! .

ضحك الهر الآخر من قولي واستهزأ من حلمي .. بينما رفيقه اللطيف شجعني كثيرا ..

خرجنا إلى الشرفة .. تأملت معهما ليل المدينة بكل آمان هذه المرة .. أحسست بقدرتي على العيش في مثل هذه الأجواء ..

❖❖❖

بقينا وحدنا .. أنا والقط اللطيف ..

تحدثنا كثيراً .. عن قطط المدينة الجميلة وعن مواصفاتها وما تتمتع به من دلال وجلال في هذا الوطن .. وعن العلاقات بين القطط ذكورها وإناثها .. بل حدثني بحماسة عن كيفية الارتباط بقطة جميلة من هذا الوطن .. بل زاد وحثني على البحث منذ الغد عن أليفة تؤنس وحشتي لتسهل عليّ الحياة في الغربة ..

حدثني أيضا عن تلك القطة المنقذة .. سألته عن نوع العلاقة التي تربطهما ببعضهما .. فرحت حين علمت أنهما أصدقاء طفولة ولا يفكران بالارتباط ببعضهما .. قال : أنهما عاشا في بيتين متجاورين في نفس الحي .. كانت بين أهل البيتين علاقة صداقة .. كانا يتبادلان الزيارات بموجب هذه الصداقة .. التقيا في إحدى هذه الزيارات وتعارفا وترعرعنا سوياً .. هذا كل ما في الأمر .. لا أعلم لما شعرت براحة حين علمت ذلك .

سألني هري اللطيف تلك الليلة سؤالين محيرين ..

أما الأول فقد أحسنت الإجابة عنه لسهولته فقد كان السؤال أيضا بسيطا ومتوقعا هل وطنك بعيد من هنا ؟

تحسرت وتنهدت قبل أن أجيبه .

بينت له أن مشكلة وطني لا تكمن في بعده بحسابات المكان فقط .. بل بحسابات الزمان أيضا ..

أما السؤال الثاني فكان صعب الإجابة عليه في تلك الليلة

قاطعته القطة الشابة بحماس :

- ماذا كان السؤال ؟
- ماذا ستفعل من أجل قطط وطنك ؟

عادت الذبابة لإزعاجهم .. عودتها نبهتهم لشيء مهم غفل عنه ثلاثتهم .. إنه الوقت الذي داهمهم دون شعور منهم بزحف الظل بعيدا عن جدارهم المتهالك ..
غادره الشابان على أمل باللقاء.

❖❖❖

ذلك الصباح كان جميلا على عكس سابقيه .. سحب متناثرة في سمائه .. نثرت ظلالا طيبة على أرض الوطن الخلاء .. سار الكهل يمشي الهوينا في أرض أسلافه .. كمن يبحث عن تفاصيل جديدة ليرويها لضيفيه ..
لم يتأخرا عن الوصول .. تبادلوا تحايا الصباح .. لم يحتكموا إلى جدارهم كما اعتادوا .. سارا على جانبي الكهل .. واصل سرد تاريخه المشوق :
" بعد أيام اكتشفتُ الوجه الحقيقي لتلك المدينة .. أكثرت من التجوال في شوارعها .. تعمقت في أزقتها .. تخلصت من حذر القطط .. لم أعد بحاجة لذلك في تلك المدينة .. لا أحد هنا يعادي القطط ولا غيرها من المستضعفين .. حتى الكلاب هنا بدت أليفة ورقيقة .. ونظيفة !

هالني وراعني كثرة ما اكتشفت .. اكتشفت أننا نعيش في المكان الخطأ .. بل الزمان الخطأ .. والطريقة الخطأ .

تعيش قطط تلك المدينة حياة مترفة مرفهة منعمة .. ربما هذا الوصف لا يعني لكما شيئا فأنتما أبناء هذه الحياة .. لكن الأمر يختلف لقط كان يعتقد أنه يعيش .. فاكتشف أنه يتنفس فقط ..

اكتشفت أماكن تُحترم فيها القطط .. هم يطلقون عليها قطط مشردة أو لاجئة أو ما شابه .. لكنها تحظى هناك برعاية وأمان وكثير من الحرية .. ليس هذا فحسب .. بل تتوفر لها في تلك الأماكن كل ضروريات حياتها ..هذا عدا أن الطعام متوفر في كل مكان دون الحاجة للعبث في أكوام القذارة للوصول إلى لقمة أقل ما يقال عنها أنها تسد الرمق .

بكيت بحرقة على وطني الذي ضيعه نزق قط أعور ..

اكتشفت أن والديّ كانا يخططان للوصول لهذه الحياة التي لم تعيها قطط وطننا بعد .. كان خيالها أضعف من أن تتخيل الحياة بشكل أفضل .

اتخذت قراري :

" لابد من الوطن ولو طال الصراع والنزال ".

❖❖❖

لم أعد بحاجة لدليل في المدينة .. صرت أعرف الكثير من مجاهلها .. في غمرة بحثي في طيات المدينة التي تبوح لي في كل يوم بجديد كنت أجهله .. فقط عليك ان تكون حذراً – وهذا ما لا ينقصني - .. تعرفت على قطط كثيرة .. قادمة من أماكن شبيهة بوطني .. أحسست معهم بألفة الغريب للغريب .. تشابهت ظروفنا التي عشناها في أوطاننا .

لم يخفوا عني رغباتهم وأهدافهم .. كان ماضينا متشابها وكذلك حاضرنا .. لكن مستقبلنا لم يكن كذلك .

كانت أهدافهم بسيطة وأغراضهم تافهة ..

تلخصت في أمرين : لقمة هنية وقطة أليفة .

كان همي أكبر من ذلك بكثير ..

لم أقطع تواصلي واتصالي بهريّ الصديقين .. كنتُ التقيهما بين الفينة والأخرى بعد أن استقللت بسكني ومعيشتي .. لم أنس شكرهما في كل مناسبة .. حتى ذلك الهر الخشن لم يعد كذلك .. خصوصا بعد أن تزوج وارتبط بهرة تناسب طباعه في مكان يبعد عن إقامتي ..

لكن علاقتي بتلك القطة المنقذة كانت مختلفة تماماً .. شعرت منذ البداية أن ما أشعر به نحوها ليس مجرد عاطفة عابرة أو نزوة طائشة أو عرفانا بالجميل ..

كانت لقاءاتي بها في البداية على فترات متباعدة ولأوقات قصيرة ..

❖❖❖

تقاربت المسافة الزمنية بين لقاءاتنا .. طالت لحظات اللقاء التي كانت للتحية والسؤال عن الأحوال .. أصبحت دقائق تزداد طولا بعد كل لقاء ..

حدث ما كنت أتمناه وأرجوه وأطلبه .. فالقطط المترددة تخسر كل شيء .. تخليت عن خجلي ذات مساء وبحت لها بمكنون سري .. وبثثت لها لواعج قلبي .. أفصحت لها عن رغبتي .

كانت من الرقي بمكان ..

لم تصدني ولم تردني ولم تردعني ..

المشكلة أنها لم توافقني ولم تجبني بحقيقة ما تحس به نحوي .. اكتفت بابتسامة .. كانت من الغموض لتفسر بكل شيء عدا الموافقة .

غبت عنها أياما قضيتها في تسكع واستكشاف المدينة والنهل من كل تجاربها ورسم صورة دقيقة لمستقبلي وبني جلدتي .. في تلك الفترة قررت قراراً اعتبرته مصيرياً ..

- كان عليّ أن أقود التغيير .

قال الفتى في حماسته :

- قرار صعب وجريء .

ردت قطته الشابة :

- لكنه صائب وضروري .

علق الكهل :

- لم يكن الأمر سهلاً .. كنتً بين خيارين أن نكون أو لا نكون ..

أضاف :

- ما كان لمثلي أن يستسلم بعد كل هذه المعناة التي تجرعتها وتجرعها آبائي من قبل .

❖❖❖

واصل القط الكهل سرد الذكرى :

- في إحدى جولاتي الكثيرة .. لمحته في زقاق ضيق .. كان يتلصص على قطة غافلة .. عرفته .. إنها عادته القديمة يمارسها في كل مكان .. تتبعته بحذر ... خشيتُ أن يفر مني .. فاجأته بعد أن اقتربت كثيراً منه .. لم يعد أمامه مفر .. جمد في مكانه .. أخذته المفاجأة .. لم يكن يتوقع أنه سيلقاني ذات يوم .

سأل القط الفتيّ في لهفة بعد أن صمت العجوز ليلتقط بعض أنفاسه بعد أن أنهكه السير الطويل .

- من يكون ؟

لم يجب القط الكهل عن تساؤله .. بل سار نحو الجدار .. استلقى في ظله .. أخذا موقعهما كالعادة .. راقب الأفق البعيد بعينيه الواهنتين .. أجاب بعد أن استرجع تنفسه الطبيعي :

- إنه هرٌ بائسٌ من أرض الوطن ..

- يا لها من مفاجأة !

- نعم .. اصطحبته معي بعد أن استفاق من ذهوله .. كان حديث الوصول للمدينة .. سألته عن أحوال أهل الوطن وزعيمها .. هالني ما أفادني به .

حكى لي بحرقة عن تغطرس الزعيم وكيف صار القتل أداته اليوم في سياسة أمر القطط .. أخبرني بفرار القطط اليومي طلباً للنجاة من جحيمه .. حدثني أيضا عن اتخاذه لتدابير جديدة تحول بين القط وبين الفرار في طلبهم للحياة بعيداً عن سلطانه وسطوته .. بث عيونه بين القطط .. فلم تعد هناك ثقة بين القط وأخيه ولا بين القط وذويه ولا بين القط وقطته .. الكل عيون على الآخرين .. صار الزعيم عدو القطط الأول .. لم تعد الكلاب تحتل تلك المرتبة صارت أكثر لطفاً ورحمة منه وأقل عدوانية تجاهها .

حدثني بأسى أن الأمم المجاورة لنا في الوطن تعيش وترتع في خيراته في أمن وسلام " .

قاطعه الشاب بحماس :

- هذا ديدن الطغاة في كل مكان .

" أخبرني عن نجاح بعض قطط الوطن في الوصول إلى هذه المدينة قبله .. منذ تلك الليلة قررنا أن نعمل من أجل الوطن .. حدثني كذلك عما عاناه القط العجوز من ضيم الزعيم بعد أن صار حكيماً للقطط .

سألت القطة الشابة في لهفة :

- ماذا عن الشاعر ؟
- سألته عنه فقال أنه صار مقعدا بعد أن قطع الزعيم له قدماً .
- ما سبب ذلك ؟
- صارت قصيدته الشهيرة على كل لسان .. بل قيل أنها صارت كابوساً يقض منام الزعيم .
- يقض منامه ؟
- نعم قال انه صار يستفيق مرعوبا من نومه بسببها .. لذلك قرر معاقبة الشاعر من جديد بقطع ساقه وذيله .
- يا له من ظالم .

كان أول عمل قررنا البدء به .. هو البحث عن أبناء وطننا المنتشرين في المدينة .. ثم إيجاد وسيلة لإخراج الشاعر والقط العجوز من أرض الوطن .

نعيم مقيم في أرض القطط

فكان وبالا عليها القطط

صبرنا على عيش قحط

وظلم وبؤس وشطط

فلا حل لنا سوى في المواء

مواء مواء مواء مواء .

معارضة

" لم يطل بحثنا كثيرا .. بعد أيام قليلة اجتمعنا ببعض أبناء الوطن .. كانت فرحة اللقاء لا توصف .. حدثتهم عن أهمية العمل على إنقاذ الوطن وأبنائه .. تجاوب معظمهم وتحمسوا وأكدوا على ضرورة العمل على تحرير الوطن من مغتصبه الأعور الأرعن .. شكلنا فرقا وزعنا الأعمال المطلوب إنجازها .

كنتُ على رأس أهم لجنة .. وضعنا على عاتقها التواصل مع أبناء الوطن .. شكلنا فريقا من القطط الفدائية .. مهمتها ربط التواصل بين الداخل والخارج .. تسهيل فرار المعارضين والمحكوم عليهم بالنفي .. الجانب الآخر لهذه اللجنة كان توعية أبناء الوطن المهاجرين بضرورة العمل والتخطيط من أجل العودة بسرعة لأرض الوطن ..

بدأت نتائج عملنا تظهر شيئا فشيئا.

تنهد الكهل قبل أن يضيف جملته الأخيرة :

- لكن تأتي رياح المفاجآت بما لا تشتهي سفن الربان .

سألته القطة الشابة هذه المرة :

- ماذا حدث ؟

- لم يكن الزعيم بغافل عن مخططاتنا .. يبدو أنه زرع بين ظهرانينا عيونا تعمل لصالحه .. وتتربص بتحركاتنا وتنقل له كل شاردة وواردة.

❖❖❖

كان عملياً .. لم يترك الأمر للصدفة فقرر إنهائه في مهده .. بث عيونه بين المهاجرين الفارين .. ترصّد تحركات الجميع في الداخل والخارج .. وصلت إشارة لأعوانه بساعة التنفيذ . بل سرعة التنفيذ .. هذا ما أفشل مخططه ..

ذلك المساء كنت هائما متسكعا في شوارع المدينة .. في طريقي إلى مكمني .. أفكر في همين .. هم الوطن .. وهم نفسي .. لم أشعر بمطاردتهم لي ولا مراقبتهم .. استغلوا السكون والعتمة .. استثمروا وحدتي وانشغالي أيضا .. فكان الهجوم .

لم يكن الأمر عارضا كما توقع البعض .. خصوصاً أني طيلة وجودي في المدينة لم تسجل مثل هذه الحوادث لا ضدي ولا ضد غيري .. كانت النية المبيتة هي الخلاص .. التخلص من الوجع بالقضاء على مصدر الوجع .. كنتُ مصدر وجعٍ له مرتين .. مرة

لمعارضتي له وتحريضي عليه .. أما الأخرى كوني ابن القطة الوحيدة التي عصته ورفضته ورفست نعمته .

- هكذا يفكر البغاة .. بدل أن يفكروا في البحث عن مصدر الفساد .. يبحثون عن مصدر الإقلاق المتمثل في كل من يبين عورهم وفسادهم.

سألت القطة الشابة في لهفة :

- ماذا جرى بعدها ؟

واصل الكهل سرد الواقعة :

- طالت المعركة .. لم يتمكنوا من حسمها رغم المباغتة وعددهم الكثير .. تمكنت من المقاومة وصد الكثير من ضرباتهم .. هذا عدا تلقيهم لضربات موجعة مني .. لم أكن سهلا على كل حال هههه هههه " .

أشار الكهل لآثار جراحٍ قديمة على بدنه قبل أن يكمل :

- لكن الله سلم .. فتح أحدهم نافذة بيته بعد أن أزعجه ضجيج المعركة وصراخ الخصوم .. فكانت نجاتي من موت محقق ومخطط له .

ابتسمت الشابة وقالت :

- الحمد لله .. كنت محظوظاً .

- حافظت على أرواحي السبعة على الرغم من قساوتهم هههه هههه ... فر المجرمون .. عادوا للوطن لينقلوا للزعيم فشلهم راجيين منحهم فرصة أخرى .. لكنه لم يفعل .. أعدمهم الزعيم الأعور الأرعن بعد فشلهم في تنفيذ مأربه الرخيص .. صب جام غضبه على باقي السجناء .. سخط عليهم .. أذاقهم من الألون صنوفاً.. هذا ما حمله بعض الفارين من الوطن بعد تلك الحادثة .

مرت سحابة .. غطت قرص الشمس .. سكت الكهل .. تابع مرورها .. منح ظلها برودة لذيذة .. عاد القرص ليستولي على مكانته في كبد السماء .. أعاد نشر أشعته التي حجبتها تلك السحابة العابرة .. استحثه الشابان على إكمال روايته .. عاد لسرده :

" كانت للحادثة فائدتان عظيمتان .. بدأنا أكثر حرصا من ذي قبل وأكثر دقة في تحركاتنا .. والأهم من كل ذلك هو زيارتها لي بعد أن أصابني يأس من جانبها .. جاءت لتعودني .. أفزعها ما حل بي .. كانت سحنتها ممتقعة .. أشرفت على علاجي والعناية بي .. كانت لها يد كبيرة لاسترجاعي عافيتي .. لن أنسى ذلك الصباح الذي وقفت فيه لأول مرة على قدمي بعد الحادثة .. باحت لي بما جعلني أتشبث أكثر بالحياة من أجل تحقيق هدفين هامين في حياتي .. أن أكمل مسيرتي من أجل وطني .

وأن أكون جديرا باحترامها وحبها .

❖❖❖

سار الثلاثة نحو البرميل هرباً من حرارة المكان .. دخلوا جوفه .. انتظروا جميعاً جولة الذبابة التفتيشية .. استعد لها الشابان بقبضتيهما الفتية .. دخلت من الجهة المعاكسة لهما .. جالت في المكان مزعجة الكهل وضيفيه .. غادرت بعد محاولات يائسة لإصابتها بالقبضات الفتية الغاضبة .. استقر أهل البرميل أخيراً .

" ارتبطنا أخيراً .. كان الأمر صعبا عليها .. فأسرتها تعارض هذا النوع من الارتباط .. لكنها كانت شجاعة .. استطاعت أن تفرض رغبتها وأن تدافع عنها باستماته .. كثير من منفييّ الوطن ارتبطوا في المدينة .. منهم من استمرأ العيش فأنسته القضية .. تغير فنسى الوطن .

فنسيناه أيضا .. منهم كثيرون من تلبسته القضية فصارت تسري في دمه .. وما ارتباطه بأليف من المدينة إلا دعماً نفسياً وعاطفياً ومعنوياً له في مسيرته .. مر وقت ليس بالقليل .. اكتشفنا أننا لسنا وحدنا من يعمل لنفس الهدف .. وهو إسقاط الزعيم الأعور .

اسوء ما وصلنا من اخبار من الوطن كان عن القط العجوز ..

تساءل القط الفتيّ :

- ماذا حل به ؟

- بعد أن صار له اتباع ومريدين صار يشكل قلقاً على الزعيم .. فكاد له مكيدة جهنمية محكمة فقد على إثرها بصره فصار كفيفاً .. كان خبراً موجعاً .

- يا لتعاسة القطط .

- فكان أول ما قررنا عمله هو أخراج العجوز من الوطن وكذلك الشاعر الذي صارت قصائده أناشيد تموء بها القطط في كل وقت وحين ..

قالت القطة الشابة :

- غرض نبيل وغاية هادفة وتعاون مفيد .

حرك الكهل ذيله علامة الرضا .. قال بعدها:

- عملنا بجد مع الكثير من جماعات القطط الهاربة .. ربما اختلاف الوسائل كان الفارق بيننا وبينهم .. كان لاختلاف الأهداف من إزاحة الأعور الأرعن أيضاً عائقاً دون التنسيق مع آخرين ..

مع ذلك تجاوزنا الكثير من المحن ..

انتظمت صفوفنا جيداً .. عملنا بجد واجتهاد وبتنسيق .. استطعنا إخراج العجوز الضرير والشاعر المنكوب ..

هتفت القطة الشابة :

- رائع ..

أضاف الشاب بحماسة :

- خطوة مهمة .

واصل الكهل قائلاً :

- كان نصراً مهماً لنا على الأرعن .. الذي استشاط غضبه وما انفك يضرب خبط عشواء .. يعتقل هنا وهناك ويقتل ما سهل علينا أهم أمر .

- ماهو ؟

- صارت القطط أكثر تفهماً ووعياً وإدراكاً لأهمية إزاحة الأرعن وانتزاع حريتها منه مهما كلف الثمن .

دقت ساعة الحسم ..

عتق

قررنا أن نخطو أهم خطوة في نضالنا ..

العودة .. إنه القرار الذي أجمع عليه كل معارضي القط .. فشرعنا في تنفيذه .

عدنا إلى أرض الوطن ..

حملتنا تلك الوحوش البرتقالية في جوفها .. كانت وسيلتنا للعودة كما كانت سبيلنا للنجاة من قبل .. كان الوطن ينتظر لحظة الانقضاض هذه .

فوجئ الزعيم بانتفاضة القطط المقهورة .. نسى تماماً الحكمة التي تناقلتها الأمم وضربت بها المثل مستخدمة القطط مثالاً .. فهي أفضل من يمثل الحالة وأصدق من يعبر عنها :

" إذا حاصرت القط فاترك له فسحة وإلا فإنك تذكره بمخالبه "..

تذكرت القطط المحاصرة والمحصورة تحت سلطة الأرعن أن لها سبعة أرواح تعيش كلها في مذلة .. فقررت التضحية ببعضها من أجل سلامة الباقي .. فما حاجة قط لسبعة أرواح كاملة وهو ذليل؟.

لم يصمد أعوان الزعيم الأعور كثيراً .. تداعت أركان عرشه من هول ضربات القطط المظلومة المكلومة .. انفض حوله الأنصار .. بعضهم خوفاً على الأرواح .. بعضهم طمعاً في الأرباح .. سارت الرياح بما اشتهت سفن القطط .. حاول الاستعانة بجيراننا من الكلاب والجرابيع والثعالب للوقوف معه وإنقاذه مقابل مزايا هامة يمنحها لهم من حصة القطط في الوطن .

صاحت القطة الشابة :

- يا له من خائن .

- لم يفلح تدبيره أمام رغبة القطط في الانعتاق من قيوده الكثيرة البغيضة القاسية والمهينة .

كانت فاتورة كسر القيود باهظة .. نزفنا دماءً غزيرة وخسرنا أنفسًا عزيزة .. حاولنا أن ننهج معه نهجا مسالماً .. وأن نحدث تغييراً في الوطن بما يخدم كل أبناء الوطن ..

لكن أبى الأعور إلا أن يركب رأسه ويفرض رأيه .. كرر على الأسماع حكمته التي ساس بها القطط كل ذلك الزمن .. بل ورآها وحدها الأنجع والأسلم والأحكم :

" المخلب الأقوى هو الأصلح " .

فكان لابد مما ليس من الوقوع فيه بد ..

صاح القط الفتيّ :

- يا له من متعجرف .

- وقف الأرعن في طريق التغيير بكامل قوته وجبروته .. سقط خلق كثير .. كانت الكلاب تتفرج في شماتة .. الجرابيع والفئران اعتبروا ذلك عيداً .. في النهاية كانت الكلمة لأهل الحق على أهل الجور والباطل .

سقط الأرعن مضرجاً في دمائه .. نالته يد خصومه .. طالما سفكها .. في نفس المكان الذي سفح فيه دم ذلك القط الذي افتتح به عصره الدموي ..

هتفت القطة الشابة في فرح :

- الجزاء من جنس العمل .. هكذا تقول الحكمة .

❖❖❖

كان على القطط الثلاثة مغادرة البرميل .. توجهوا من جديد إلى جدارهم .. اختفت السحب من لوحة السماء .. عززت الشمس من قوتها ونشاطها .. افتتحت الشابة الحديث هذه المرة :

- الحمد لله .. آن للقطط أن تنعم بوطنها .

زفر الكهل .. حرك ذيله بتكاسل .. بحث بعينيه عن ذبابتهم المزعجة .. استأنف حديثه بعد أن تأكد من خلو المكان من زنينها :

" تراقصت القطط حول جثته .. احتفلت كثيرا بانتهاء عصر الخوف والرهبة والفزع .. أكلت وشربت بشهوة وشراهة .. أقامت أفراحا كبيرة لا مثيل لها .. امتلأت سماء الوطن بالفرح الذي غاب عنها كثيرا .. حُق لأمة القطط أن تفرح .. فقد استعادت حريتها بمخالبها وإرادتها .. بعد أيام قلائل من الفرح العارم ..

طارت خمرة الفرح من العقول .. آبت القطط إلى رشدها .. اكتشفنا شيئا لم نحسب له أي حساب .. اصطدمنا بواقع جديد أفسد علينا فرحتنا .. أجبرنا أن نعيد حساباتنا في كل شيء .

❖❖❖

لم تعد القطط كما تركناها في أرض الوطن ..

تجربتها المريرة مع الزعيم الأرعن جعلها تنظر لكرسي الزعامة نظرة مختلفة .. لم يعد شعار القطط القديم صالحا :

" أكلة هنية وعيشة رضية " .

اكتشفنا أن هناك الكثير من الفرق ترغب في قيادة القطط .. كان من السهل اكتشاف مدى اتساع هوة بين هذه الفرق .. كان الهدف في البداية واضحا ومشتركاً ..

كنا نحلم بوطن يجمعنا .. ننعم بخيراته ونعيش في احضانه بسلام وأمان واطمئنان .. ننهض به وينهض بنا ..

لكن ...

ماءت القطة الشابة في غضب واستنكار :

- لكن ماذا ؟ ... ما الذي جرى للقطط ؟

صار المستقبل غامضاً مجهول المعالم ..

كان كل فريق يخطط بطريقته الخاصة ..

المشكلة أن تخطيطه كان لنفسه فقط .. أخذت تتسع تلك الهوة يوماً بعد يوم ..

صارت وادياً عميقاً .

لم يكن هذا كل شيء ..

صارت الزعامة مطلب الجميع .. وهنا الكارثة !!!

هتف القط الشاب في غضب :

- بعد كل تلك التضحيات .. لم لا يتنازلون من أجل الوطن ؟

تنهد الكهل العجوز في حرقة قبل أن يسترسل في سرد تاريخ موجع لوطن ضائع :

- تطلعت الرؤوس كلها للبس التاج .. وامتدت الأيادي كلها لتلقف الصولجان .. حتى اشتهرت طرفة في تلك الأيام تقول :

" إن المتطلعين لزعامة القطط يفوق عدد القطط" ..

لم تكن الحرية فقط ما استرجعته القطط ..

استعادت كذلك فوضاها التي كانت سبباً لما آلت إليه حالها .. استرجعت مخالبها الضائعة في عهد الزعيم ..

صارت المخالب موجهة لصدور القطط .. بدل أن تشهر في وجه الأعداء .

❖❖❖

استعادت القطط حريتها المفقودة ..

لكنها فشلت في الحفاظ على القيم .. تاهت القيم في صحراء المنفعة .. ذابت أمام لهب الطمع .. تغيرت مفاهيم الأشياء ومعانيها .. احتفظت القطط بالمسميات فقط .

ارتُكبت المجازر .. مجازر فضيعة .

قاطعته القطة الشابة :

- مجازر ؟ .
- نعم ..
- لماذا ؟
- الانتقام .. تذكرت القطط مآسيها في عهد الأرعن .. ونسيت حُلمها وحِلمها .. عندما يفقد القط حِلمه يتحول لوحش لا يمكن ردعه .. سعى كل قط لينتقم لنفسه .. فاختلط الحابل بالنابل ..
- يا لبؤس القطط .

- تساقطت القطط تباعاً .. بات الوطن ساحة قتال بين القطط .. بعد أن كان حُلماً كبيراً .. صار قبراً عميقاً مظلماً .. ضاق الوطن بما رحب .. امتد الصراع ليشمل الجيران ..

تساءل القط الفتيّ :

- ما علاقة الجيران بالقطط ؟

- اختلطت الأوراق .. تدخل الجيران لم يكن بغرض الإصلاح كما اعتقدت القطط .. بل كانوا يزيدون نار الفتنة وقوداً فتزداد اشتعالاً وإحراقاً .. ليخلو لهم الوطن ويتقاسموا نعيمه وحدهم بعد أن تفنى القطط صاحبة اكتشاف المكان وأول النازلين في حماه.

أضاف الكهل في أسى :

- اشتعل حب الانتقام والقتل والثأر بين الجميع .. لم يخضع أحد لأحد .. كل يرى نفسه أحق بالوطن وخيراته ..

فشلنا في إيقاف القطط وإعادتها لصوابها .. جرفها سيل الانتقام للمزيد من الانتقام .. سيطرت كل مجموعة من القطط على جزء يسير من الوطن ..

نسى الجميع أن الوطن يسع الجميع .

لكن لات حين مندم ..

جثث القتلى .. أطراف المصابين .. متناثرة في كل مكان .. صار الكلب حليفاً والفأر لطيفا والقط وحده عدو القط ..

رددت القطة الشابة جملتها الأثيرة بحزن وحرقة :

- يا لمأساة القطط !

صمت الكهل .. كان الحزن يعتصر قلبه الكهل .. حاول إخفاء دمعة حسرة تحاول النزول .. استجمع قواه ليضيف بصوتٍ متهدج :

- غادرت قطتي الوطن .. كنت بالكاد أقنعتها بالعودة معي إلى الوطن لنعمل معاً على نهضته .. كانت تحلم مثلي بمستقبل زاهر لقططها الصغيرة .. غادرتنا بعد أن اكتشفت استحالة تحقق حلمها في المدى القريب .. أخذت قططنا الصغيرة معها ..

غادر آخرون مثلها هرباً من الانتقام والموت .. قالت كلمتها الأخيرة الموجعة :

- كيف تريدني أن أعيش في وطن ترابه مغطى بجثث ساكنيه ؟ .

ذهبت إلى حيث أمنها وأمن أطفالها .. لم نلتقِ بعدها أبدا .

تنهد الكهل وزفر قبل أن يضيف :

زاد عقوق الأبناء على وطنهم .. طال أنينه ووجعه .. لكن أبناء الوطن لا يسمعون .. أخذتهم شهوة القتل والانتقام كل مأخذ .

حذرتهم من مغبة ما يصنعون بالوطن .. كنت أرى ما لا يرون .. رأيت وطننا يضيع من بين أيدينا .. وقفنا عاجزين عن فعل ينقذه

من براثن الأنانية .. لكن القطط استمرت في غيها .. لم تسمع لكل النداءات ولا الاستغاثات .. أصمت آذانها عن سماع صوت كهولها وعن التماس حكمة حكمائها .. حتى نبوءة ذلك العجوز .. قالها ذات ليلة .. لم يأبه لها أحد :

- " ستندمون على وطن ضيعتموه بأيديكم قريباً " .

روائح الموت أزكمت الأنوف .. ضاق الآخرون ذرعا بعبث القطط .. فكان لابد من وضع حد لذلك .. عجزت القطط عن إيقاف نزيف الموت فحدث ما لم يحسب له احدٌ حساب .

ذات صباح استيقظنا على كارثة الكوارث .

❖❖❖

توقف عن سرده ..

من بعيد لاح طيف قادم .. كان مسرعاً في خطواته كعادة الشباب .. بل متأنياً كعادة الكهول .

انتبه له الفتيّ .. فأومأ للفتاة .. تفرست بدورها في الشبح القادم .. اقترب من المكان .. أسرع الفتى نحو القادم .. ابتسمت الفتاة .. تساءل الكهل عن هوية القادم ؟ :

- إنها أمه .

ارتجف الكهل .. أخذته المفاجأة .. وقف بصعوبة لاستقبال القادمة .. بالكاد تمالك نفسه .. كادت أرواحه السبعة المنهكة تفارقه .

أسندته الفتاة .

وصلت منهكة .. يتصبب منها عرق الإجهاد .. التقطت أنفاسها .. .. أسندها الفتى .. تواجه الكهلان .. وجهاً لوجه .

عم المكان صمت ..

لم يأبه أحد من الأربعة للشمس المحرقة .. حرارة الموقف كانت أبرد من سلطان الشمس .. زوجان من العيون كانتا تتبادل حواراً صامتاً .. ضجيج كلماته الصامتة عبرت عنه المآقي بدموع جارية ..

زوجان آخران من العيون كانت تتابع المشهد .

تحاضنا الكهلان طويلاً .. باحت الأحضان بكوامن أخفتها لسنوات طويلة ..

تبادل الشابان إشارات الاستفهام ؟

انفصل الحضنان ..

جلسوا جميعاً إلى ظل الجدار من جديد .. الكهل كان السباق بالكلام :

- لم تغيرك السنون .
- أنت كذلك لا تزال بحيوية الشباب .

ابتسم الشابان خفية عن الكهلين العاشقين .. لكن العجوز كان فطناً كعادة كهول القطط .. فتبرع بإزالة سحب الشك وغيوم الريبة عن سماء ذهنهما فقال :

- إنها هي .. تلك الحبيبة .

صاح القطان فرحاً :

- أوه رائع .. يا له من لقاء و يالها من مصادفة .

- أخبرني قطي الأليف أنه التقاك .. حرك في جوفي الرماد المتراكم .. نفخ فيه .. أشعل فيه الروح .. كبرت نار الوطن داخلي .. أشعلتني شوقاً له .. لم أخبره بتفاصيل علاقتنا السابقة .. حدثني بكل ما أخبرته به عن الوطن وما حدث فيه .

قال الفتى مبتسماً لأمه العاشق العجوز :

- هو أيضاً لم يخبرنا عن علاقته بك .. كل ما فعله أنه أشاد بك .. ووصفك بالصرامة والحزم .

أضاف الكهل مقاطعا :

- والحكمة أيضا هئ هئ هئ .

- أوه .. كان ذلك في الماضي .هئ هئ هئ ..

- أماه .. لم تخبريني برغبتك بالقدوم للوطن !.

- الشوق ما حملني لتكبد المشقة .. شعرتُ أن أنفاساً لي عليّ أن أتنفسها في بقايا الوطن .. أسرعتُ ملبية نداء الشوق .. ظهور هذا

العجوز في المكان زاد من نيران شوقي .. جعلها حريقاً لا يقاوم .. جئتُ لأطفئ لظى هذه النيران ولو بنظرة ....

هل أكملت لهم السيرة ؟ ..

- ليس بعد يا أماه .. نحن ننتظر أن يتكرم علينا ويكمل باقي السيرة .. كم هي أليمة ومفزعة .

بحسرة شديدة قالت القطة الشابة :

- مسكينة القطط .. لم يهنأ لها عيش ولا بال .

سألت العحوز الكهل :

- أين وصلت في سرد تلك السيرة ؟
- لم يبق إلا الحديث عن ذلك الصباح الرهيب .
- دعني أكمل عنك هذا الفصل الأليم .

وطن !

في ذلك الصباح المشؤوم .. استيقظ الوطن كله على كارثة .
ضجيج وحوش مزمجرة .. تحاصر الوطن من كل أركانه .. ترتفع أدخنة غضبها إلى عنان السماء .. غاب الوطن تحت ضبابها .. لم يستوعب أحد ما يجري ..
طارت سكرة الحقد بعد أن ضاع الوطن وأهل الوطن .. تقدمت الوحوش المزمجرة .. تكنس خيرات الوطن .. وتدوس على ساكنيه .. أكملت ما بدأه طيش أبناء الوطن العاقين في أخوة الوطن ..
تقافز الجميع بحثاً عن النجاة .. تاهت بوصلتهم عن تحديد مخرج النجاة فكان العقاب أليماً .. كعادة البلاء عم الجميع .. دون أن يستثني منّا أحداً .. المصائب والكوارث لا تحسن اختيار أهدافها .. بل تضرب ضرب عشواء .. فما صادف غضبتها جرفته سيول الضياع والهلكة .. إنها مثل المطر تنزل على البر والفاجر .. الصالح والطالح .. الفرق الوحيد بينهما هو أن المطر قد تصادف موقع إنبات فتزهر .. أما هذه الوحوش فلا فهي تدمر فقط كل ما يصادفها .
ضاع الوطن قرباناً لضريبة نزق الانتقام .

اجتاحت تلك الوحوش المزمجرة كل شيء .. كانت عمياء الهدف .. .. لم تفرق في طريقها بين قط وآخر .. اجتاحت كل شيء .. قتلت من كان غافلاً .. داست من عجز عن الهرب .. قضت على من وقف في وجهها ..

طاشت القطط .. في كل مكان .. لا مفر ولا منجى ولا مهرب .. الموت يحيط بالوطن من كل أركانه ..

بعدها اندلعت الحرائق .. حرائق هائلة .. أشبه بالجبال .. تلتهم كل شيء .

قليلون كانوا ينتظرون وقوع الكارثة .. قليلون صدقوا النبوءة .. قليلون فازوا بحياتهم .. لكن أي حياة !! .

قليلون شهدوا مصرع الوطن .. أولئك القليلون فيهم قلة أيضاً احتفظت قلوبها النقية بذكرى جميلة للوطن ..

انتهى الوطن .. انتهى الحلم .

حلم لم نحسن أن نحققه .. بل حلم لم نكن أهلاً لنحققه .. لكننا كنا نستحقه .

انتهى كل شيء ..

تشردت القطط القليلة الباقية في شتى البقاع والأصقاع .. فقدت هويتها .. نظر الآخرون إليها نظرة شماتة ..

الشماتة كانت أقسى عقاب .. اقسى حتى من الموت نفسه .

من ضيع وطناً يستحق أكثر من الشماتة ..

جرفت الوحوش كل شيء .. لم تبقِ ولم تذر ....

حتى الأحلام والأماني داست عليها بشراسة .. مسحت النيران كل أثر .. صار الوطن قاعاً صفصفاً ..

كان العقاب وخيماً .. رهيباً مفجعاً .

إنه جزاء من يعبث بوطن امتلكه فلم يحسن أن يحبه .. ضاع وضيعه

❖❖❖

ذرفت أربعة أزواج من العيون دموع الأسى على وطن أكلته أحقاد أبنائه وأفناه عنادهم ..

عم صمت حزين أرجاء الوطن الفاني .. بذرة أمل زرعها قلبان شابان في أرض بور مشى فوقها ذات يوم أسلاف كان لهم حلم أن يبنوه فلم يفلحوا .

على حافة الوطن ..

أربع قطط .. تنظر لغد أفضل .. تنتظر إلى أفقه البعيد .. تنتظر فجر أملها أن يبزغ .. حمل نصفها الكهل هم الماضي .. تعهد نصفها الشاب حمل هم القادم .

تمت بحمد الله وحسن عونه .

راس لانوف – بنغازي – طرابلس – غدامس

٢٠١٤- ٢٠١٧م